

# **ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية**

إعداد

**الدكتور إبراهيم بن عبدالله السماري**

عضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

**بحث مقدم إلى ندوة  
مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ**



## مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء  
والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فإن أدب الرحلات أدب شائق لأنه تجسيد للتجربة الإنسانية،  
وعاء أمين لنقل المشاعر والمعاناة وما هو قريب من الوجдан في لحظة  
الحدث، وتزيد أهمية هذا الأدب عندما تصاغ تلك المشاعر بيد  
 Maher، تستخدم كلمات معبرة، وأدوات لغوية جاذبة .

ويصبح تعلق القاريء بهذا الأدب أكبر إذا أصبحت تلك المعاناة  
أثراً بعد عين، مما يغري الحاضر بتعقب معاناة الماضي، ورسم صورة  
واضحة لفارق بين حقبتين تاريخيتين مختلفتين في كثير من عناصر  
عطائهما وتفاعلها وظروف معاشها وعلاقاتها الاجتماعية وطريقة  
تفكيرها إلى آخر ما يتعلّق بإنتاج الفكر الإنساني، أي أن الرحلة  
تكتسب أهمية خاصة ونكهة مميزة إذا كانت بعيدة العهد وتصف  
ماضياً غابت رسومه أو تغيرت ملامحه بفعل تطورات الحياة أو عوامل  
النهاية نتيجة التغيرات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية .

والرحلات مصدر مهم من مصادر المعرفة عموماً، وهي كذلك  
مصدر مهم من المصادر التاريخية؛ لأنها تتضمن الإشارة إلى الأحداث  
والواقع والتعرّف بالأمكنة والأشخاص ووصف الحالة الاجتماعية  
والاقتصادية والسياسية في زمن محدد هو زمن الرحلة التي تتحدث عن  
مكان (ما) أو حادثة (ما) كما تتحدث عن طبيعة العلاقات  
والمعاملات التي تحكم سير المجتمعات البشرية في حقبة تاريخية معينة  
وهكذا.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ومما يزيد أهمية مصدر الرحلات أن الرحالة تصاغ في الغالب بأسلوب أدبي مميز، ولاسيما إذا كانت لدى المؤلف أو كاتب الرحالة ذائقه أدبية وبلاعية ثرية .

كما أن الرحالة يحرص على الاتصال بالأشخاص العاديين الذين هم عادة يعبرون عن انطباعاتهم وانفعالاتهم بعفوية واسترسال لاتقيده قيود التحفظات؛ بحكم أنهم يتحدثون في مجالسهم ومع أشخاص يشاركونهم حياتهم .

ولابد أن أنوه إلى أن غالب الرحلات التي وصفت أو سجلت معلومات دقيقة وعلمية إلى حد (ما) عن جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها، وربما كانت هي المصادر الأجنبية المكتوبة الأولى في هذا المجال قام بها رحالة أجانب، أصبحوا أعلاماً، مثل سادلير وبلجريف وشكسبير وليتشمان وفيسي وفيلبي وغيرهم كثیر جداً .

لقد كانت الرحلات بصفة عامة والرحلات الحجازية بصفة خاصة معيناً متعددًا للباحثين والدارسين الغربيين؛ حيث ترجمت كثیر من الرحلات إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية، وحظي كثیر منها بتعليقات وتحقيق رموز فكرية غربية، وبرعاية مراكز بحثية علمية مرموقة؛ نظراً لأهميتها التاريخية والثقافية .

إن هذا هو بالذات ما يحفزني إلى الحديث عن (ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية)، ولا يمكنني الادعاء أن هذا البحث فتح مبين في بابه، أو أنه سبق إلى موضوعه، غيرأنني أقول بقلب مطمئن: إن الجوانب الثقافية التي وردت في الرحلات الحجازية

لم تحظ بحقها من العناية المركزة، القادرة على إبراز حقيقتها، وتوضيح أبعادها ، ومن ثم إبراز أهمية هذه الرحلات في تسجيل الفعل الثقافي عبر العصور في مكة المكرمة، يستوي في ذلك ما تم تسجيجه عرضاً أثاء الحديث عن مراحل الرحلة ومشاهدات الرحالة، وما قصد بيانه منه نتيجة غلبة المشارب الفكرية ذات الطبيعة الثقافية للرحالة أنفسهم، وبالتالي فإن الضرورة إلى مثل هذا البحث لاتزال قائمة .

وبالتالي فإن المروم من هذا البحث أن يكون لبنة في بناء مأمول ؛ لتفعيل هذا الجانب الثري من ثقافتنا الإسلامية الرائدة ؛ وصولاً إلى هدف شامخ هو إصدار عمل موسوعي يوثق الجوانب الثقافية في أدب الرحلات .

ولعله من المناسب هنا أن أشير إلى بعض الكتب التي ظهرت فائدتها في هذا المجال، ومن أهمها :

١ = المختار من الرحلات الحجازية، د/ محمد بن حسن بن عقيل، نشر دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢١هـ، في أربعة مجلدات.

٢ = الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ، في جزئين .

٣ = الرياض في عيون الرحالة، أمانة مدينة الرياض، ١٤٢١هـ .

٤ = الحياة العلمية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن الهجريين، طرفة العبيكان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٦هـ

## **مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام**

٥ = الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، عواطف نواب، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ.

٦ = الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي، يحيى محمود بن جنيد، نشر مؤسسة الإمامية الصحفية، كتاب الرياض ١٠٠.

### **منهج البحث :**

يعرف علماء البحوث منهج البحث بأنه : (الطريقة التي يتعين على الباحث أن يتلزم بها في بحثه، بحيث يتقييد باتباع مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير البحث، ويسترشد بها الباحث في سبيل الوصول إلى الحلول الملائمة لمشكلة البحث )<sup>(١)</sup>

أو هو : (مجموعة القواعد المصاغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم، واختصاراً فالمنهج هو: الطريق الموصل إلى الحقائق العلمية تبعاً لقواعد يستضيء بنورها الفكر) <sup>(٢)</sup>

وللبحث مناهج متعددة، تختلف باختلاف العلوم التي تعالجها .

١ - عبدالفتاح خضر، أزمة البحث العلمي في العالم العربي، الطبعة الثانية ذو القعدة ١٤٠١هـ . بدون ذكر الناشر ص ١١.

٢ - محمد أزهار السماك ورفيقاه، الأصول في البحث العلمي، ط١ نشر جامعة الموصل ١٤٠٠هـ ص ٤٢ وانظر: عبد الرحمن بدوي، (مناهج البحث العلمي)، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٨م ص ٣٠.

ولأن الهدف من هذا البحث هو التعرف على عناصر ثقافة مكة المكرمة من خلال أدب الرحلات الحجازية ؛ لذا فقد تم استخدام المنهج الوصفي، الذي يعتمد على جمع المعلومات حول موضوع معين؛ لتفسيرها وتحليلها، والتعرف على جوانبها المختلفة، ومن ثم التوصل إلى النتائج المناسبة .<sup>(١)</sup>

مع عدم إهمال المناهج الأخرى عندما تدعو إليها ضرورة البيان.

### تقسيم البحث :

هدف البحث هو تسليط الضوء على أهمية الموضوع، وإبراز حقيقة جوانبه الثقافية المضيئة، ولم يدر بخليد الباحث - نظراً لتشعب الموضوع وضخامة موارده ومادته - الحصر والاستقصاء، لذا فقد تردد في اختيار كيفية مناسبة لتقسيم بحثه ؛ تبرز مقصوده ومبتغاه من هذا البحث .

كانت أمامه طريقتان ؛ الطريقة التقليدية القائمة على تقسيم البحث بحسب العناصر الثقافية المراد تناولها، كالحياة العلمية، وأهم العلماء، وأهم الكتب، والثقافات الأخرى المختلفة كثقافة الزينة، والسوق، ونحو ذلك، ومن ثم عرض ما كتبه كل رحالة تحت بند كل عنصر .

إلا أن الباحث رأى أنه سيترتب على هذه الطريقة سلبيات، أو

١ - انظر : محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، نشر الهيئة المصرية العامة بالقاهرة . ١٣٩٤هـ، ص ١٠ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ووجهان من القصور، الأول : أن هذه الطريقة لا تابي هدفه الأول من البحث وهو إبراز جماليات أدب الرحلات، وبالتالي أهمية الرحلات الحجازية في إبراز ثقافة مكة المكرمة .

والوجه الثاني : أن هذه الطريقة لتحقق المتعة للقاريء حيث تشبه الأعمال البليوجرافية، والبليوجرافيا - نسقية أو تحليلية - مهمة في التوثيق، إلا أنها لا تملك هذه الأهمية في التذوق !

وبالتالي اتجه الباحث نحو تقسيم آخر رأى أنه سيحقق هدفه من إبراز جمال أدب الرحلات، ومتعة القاريء، وذلك بالاستعراض الموجز لعدد من الرحلات ؛ ليبدو وكأن القاريء يعيش مع أصحابها في مكة المكرمة، في مختلف العصور .

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث ؛تناول التمهيد خصوصية المكان وأهمية الموضوع، في حين ركز البحث الأول على استعراض (نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة)، وركز البحث الثاني على استعراض (نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة)، وتناول البحث الثالث (أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة)

ولعله من فروض الوفاء التي مافتئت لازمة من لوازم العقلاء أن أشير إلى الجهد الثقافي الكريمة التي يبذلها المسؤولون في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، المتمثلة في تنظيم هذه الندوة الكبرى احتفاء باختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وتركيزهم فيها

على الجوانب الثقافية ذات الطبيعة الإثرائية في بحوثها وندواتها .

وإن كان من المؤكد أن مكة المكرمة - في الحقيقة - عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية، فلاتحتاج إلى اختيار، إلا أن التبible إلى هذا الجانب، وبهذا العمل العلمي الكبير، الذي سخرت له الكفاءات والطاقات، وقبل ذلك حشدت له عقول مستيرة من علماء الأمة ومفكريها في الداخل والخارج؛ سيكون محموداً بالنظر إلى تحريك الساحة الثقافية، وإثراء المكتبة الإسلامية بكتابات، ورؤى، وتصورات، واقتراحات سيكون لها الأثر العلمي النافع بإذن الله عز وجل، مما يوجب توجيه الشكر للقائمين على هذه الندوة، وتنظيم فعالياتها تحطيطاً وتنفيذًا، بارك الله في جهودهم، ونفع بها الإسلام والمسلمين .

ولي رجاء مقررون بالشكر والدعاء - سلفاً - لكل أخ كريم، قرأ هذا البحث، فازرني بملحوظاته، أو تعقيباته؛ بما يثيره، ويحقق هدفي وهدفه منه، وهو خدمة ثقافة مكة المكرمة، وقبل ذلك خدمة ثقافة ديننا الإسلامي العظيم؛ تعاوناً على البر والتقوى .

وبالله التوفيق،



## التمهيد

### ( خصوصية المكان وأهمية الموضوع )

الرَّحَالَةُ عُمْلَةٌ نَادِرَةٌ فِي كُلِّ مُجَمِّعٍ؛ لَأَنَّ عَمَلَهُ يُوصَفُ بِأَنَّهُ مَتَعَبٌ بِدُنْيَاً وَذَهَنِيَاً، وَإِنَّمَا يَخْفُضُ وَطَائِهَ مَا يَتَحَلَّ بِهِ هَذَا الرَّحَالَةُ غَالِبًاً مِنَ الرَّغْبَةِ فِي تَوْسِيعِ الدَّائِرَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ لِدِيهِ وَلَدِى مَنْ يَخَاطِبُهُ عِنْدِ تَسْجِيلِ أَوْ سَرْدِ أَحَدَاثِ رَحْلَتِهِ وَعَرْضِ مَشَاهِدَاتِهِ وَإِبْدَاءِ اِنْطِبَاعَاتِهِ حِيَالِهَا.

وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُؤْكَدِ أَنَّ بَعْضَ الرَّحَلَاتِ تَكَتَّبُ خَصْوَصِيَّةً تَضَفيُ عَلَيْهَا مُزِيدًا أَهْمَيَّةً، فَإِنَّ الْمُؤْكَدَ كَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْخَصْوَصِيَّةَ تَرْجِعُ حِينًاً إِلَى طَبَيْعَةِ الرَّحْلَةِ، وَأَحِيَانًاً إِلَى صَاحِبِ الرَّحْلَةِ، وَأَحِيَانًاً إِلَى مَكَانِهَا، وَأَحِيَانًاً إِلَى زَمَانِهَا، وَأَحِيَانًاً إِلَى الظَّرَوفِ الْمُحيطةِ بِهَا.

وَلَذَا نَجَدُ أَنَّ بَعْضَ هُؤُلَاءِ الرَّحَالَةِ ذُو تَمِيزٍ، قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ لَهُ مِنْ تَوْفِيقِهِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ فِي أَدَبِ الرَّحَلَاتِ، حِيثُ يَمْلِكُ دَقَّةً مُتَاهِيَّةً فِي وَصْفِ الرَّحْلَةِ وَالتَّعرِيفِ بِدَقَائِقِهَا، فَلَا يَفْغَادُرُ صَفِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مَا هُوَ فِي مَتَاحَاتِ الْبَشَرِ إِلَّا سَجَّلَهُ وَسَلَطَ عَلَيْهِ إِضَاءَتِ تَكْفِي لِإِشْبَاعِ نَهْمِ الْمُتَلْقِيِّ، بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ قَدْرَاتٍ فِي مَجَالِ تَصْيِيدِ تَسْأُلَاتِ وَتَوْقِعَاتِ الْمُهْتَمِّينَ بِمُتَابِعَةِ أَخْبَارِ الرَّحْلَةِ، كَمَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَوْفِيقًاً آخَرَ يَتَمَثَّلُ فِي أَسْلَوبِهِ السَّهْلِ الْمُمْتَنَعِ عِنْدِ عَرْضِ عَنَاصِرِ رَحْلَتِهِ، بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ أَدْوَاتِ التَّأْثِيرِ الْلُّغُوِيَّةِ، وَالْتَّرَابِطِ الْمُنْطَقِيِّ بَيْنَ مَا يَعْرِضُهُ مِنْ مَوَاقِفٍ وَأَحَدَاثٍ وَرَؤْيَى، مَعَ حِرْصِهِ عَلَى كِتَابَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْمُسَمَّياتِ كَمَا يَنْطَقُهَا أَهْلُهَا، وَغُوْصَهُ كَثِيرًا فِي تَعْلِيلِ مَدْلُولَاتِهَا، فَتَكَتَّبُ

الرحلة بذلك أهمية وخصوصية تأسّر القاريء في قيود الشفف  
بمتابعتها .

وملهم ثقافي مهم في أدب الرحلات يحسن التبّيه إليه وهو أن  
الحوار ركين من خصائص كلّ رحالّة ؛ لأنّ المفترض أنه إنما  
يحصل على كثیر من المعلومات في رحلاته عن طريق الحوار مع  
الأشخاص الذين يلتقيهم، فيستطيعهم ليجيب عن التساؤلات التي  
تشيرها مشاهداته .

ولذا فقد تنوّعت موارد ثقافة الحوار عند الرحالة، وصقلتها  
الدربُ والتلاعُ الفكري والتواصل مع الآخرين بحكمة وإقناع،  
فأثرت رحلاته إثراً بيناً، وزادت وهجها تألقاً، وكان ذلك سبباً في  
علو درجة أدب الرحلات من حيث القيمة العلمية والتاريخية ؛ نظراً  
لاعتماده على تسجيل أحداث الواقع بأمانة، وأيضاً بأيديٍ خبيئة  
متمنكة .

يضاف إلى ذلك أن بعض الرحلات تكتسب خصوصية،  
تضفي عليها مزيد أهمية، وهذه الخصوصية ترجع حيناً إلى طبيعة  
الرحلة، وأحياناً إلى صاحب الرحلة، أو مكانها، أو زمانها، أو  
الظروف المحيطة بها .

ولتوسيع الأهمية الثقافية في أدب الرحلات الحجازية يلزمني  
استحضار ملامح الصورة كاملة، فقد كانت الخلافة الإسلامية في  
وقت من الأوقات تمتد من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي  
غرباً، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى جنوب الصحراء الكبرى.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

وفي عصرنا الحاضر الذي تقارب فيه البلدان، نجد في كل قارة من قارات العالم – أي في كل أنحاء العالم – بلداً مسلماً أو أقلية مسلمة، فللقارئ الكريم أن يتصور تتنوع المواقع الجغرافية التي يمر بها الحاج حتى يصل إلى مكة المكرمة، وما فيها من تأثيرات ثقافية يمكن أن يتأثر بها، وما يمكن أن ينصل إليها من تلك التأثيرات، وماتطبعه التجربة الإيمانية من أثر في نفسه ينقاذه في عودته إلى تلك الواقع، انتهاء إلى بلدء؟

يضاف إلى ذلك أن محطات قوافل الحج في القديم والحديث تحول إلى مراكز ثقافية، وصروح حضارية، يجتمع فيها أهل العلم والأدب، ويتم تداول الفعل الثقافي فيها عن طريق المسامرات، والكتب، والرسائل الأخوانية، وغير ذلك من ضروب الثقافة؛ لأن الاجتماع في هذه المحطات وإن كان من أجل الوقوف للراحة، إلا أنه لا يتوقف عند هذا الحد، وإنما يتعداه كثيراً إلى الفكر، عن طريق الاتصال المباشر بالرجال الذين يلتقيهم الحاج من مختلف المشارب الفكرية والثقافية، والاستماع إليهم، والحديث إليهم بصدق وشفافية ووضوح وعفوية في كثير من الأحيان، ومن ثم التأثير فيهم، والتآثر بهم؛ فكراً وثقافة وعادات وأعرافاً، وربما وصل ذلك إلى حد التأثير المذهبى.

بل قبل ذلك فإن قوافل الحج ذاتها تكاد أن تكون جامعاً متقداماً بالنظر إلى طبيعة أشخاصها وتتنوع مشاربهم الفكرية وثقافاتهم، فيهم الفقهاء، والقضاة، والمفتون، والأدباء، والوعاظ،

واعادة الناس بعفويتهم التي تستلفت النظر، وهكذا، ولاسيما في الزمن الماضي حيث كانت رحلة الحج تستغرق في كثير من الاتجاهات قرابة الشهر، وأحياناً أكثر؛ فكل ذلك يصنع مناخاً معرفياً، مؤهلاً للتمامي نتيجة الاجتماع والرفقة في سير الرحلة .

ولتوسيح الصورة أكثر أشير إلى أن الذين يقصدون الحرمين الشريفين ليسوا بالضرورة ممن يحسنون اللغة العربية، وإنما يتكلمون لغات مختلفة، فيها المعروف وغير المعروف، وفيها المستعمل والهجور؛ وفيها الشائع والنادر؛ فذلك أثر ثقافي لا يمكن للباحث المنصف أن يتجاهله .

كما أن الرحلات الحجازية كان لها أهمية ثقافية في تسجيلها وقائع ثقافية لم تحظ بتسجيل آخر كما هي الحال في منطقة ( حجر اليمامة - موقع مدينة الرياض اليوم - ) التي عانى تاريخها من انقطاع في بعض فتراته، فكان توقف بعض الرحالة في هذه المنطقة مؤكداً للحالة الثقافية والعلمية المزدهرة لهذه المنطقة في فترة تاريخية معينة، لا يوجد في أية مصادر أخرى .

وفي ضوء هذه الحقيقة المؤكدة فإن رحلات الحج تكتسب أهميتها وخصوصيتها من خلال عدد من المظاهر فمن حيث طبيعتها تكتسب خصوصيتها من كون الرحلة إلى الديار المقدسة ذات صبغة دينية تهدف إلى إظهار العبودية لله عز وجل، وبعث فخر لمن قام بها، ولذا يفرح كثيراً بصفة الحاج التي تلزمه في كثير من البلدان الإسلامية طيلة حياته بعد أداء نسكه .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ومن حيث المكان فإن مكة المكرمة هي عاصمة الإسلام وقبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم ومحط أنظارهم، ومجرد ذكرها يستثير بانتباهم ويأسر تطلعاتهم وشففهم، ناهيك عن تفصيل أخبارها.

كما أن المسجد الحرام كان دون شك - في جميع العصور الإسلامية - جامعة فريدة، مهوى أفئدة علماء المسلمين وطلبة العلم، وفيه تدرس العلوم المختلفة دون قيود أو تحالفات على المتعلمين، وإنما تزدهر الحياة العلمية فيه أو تضمحل بحسب الحالة الثقافية السائدة في كل عصر.

لقد وصل المسجد الحرام إلى مركز للفتيا المصدرة للعالم الإسلامي أجمع في وقت من الأوقات؛ نتيجة شهرة وفضل علمائه آنذاك، كما انتشرت كتب هؤلاء العلماء ودورسهم في الحرم في أصقاع المعمرة عن طريق طلبة العلم.

يضاف إلى ذلك تنوّع الكتب المتداولة في ثقافة مكة المكرمة كما وردت في كتب الرحلات، مما يؤكد أهمية دراسة هذه الثقافة ومعطياتها عبر العصور المختلفة.

ومن حيث الزمان فإن موسم الحج الذي تشهده المشاعر المقدسة بمكة المكرمة هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو مرقى طموح كل مسلم ومتى أمله؛ لأن كل مسلم لا ريب أنه يتطلع إلى أن يؤدي هذا الركن العظيم، وهو في ذات الوقت يفرح برؤية أخوانه المسلمين وهم يؤدونه، أو حين يصفه له من رحل منهم إلى الديار

المقدسة ؛ لما يثيره ذلك الوصف أو تلك المشاهدة في نفسه من بواعث الشوق والحنين والشعور بالأخوة والوحدة الإسلامية ، التي يحققها هذا الركن العظيم الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج .

فالحج صلة بين العبد وربه يحقق العبد من خلالها عبوديته لله عز وجل ، ويقوى صلته به ، فأداء الحج حينئذ اتباع نابع من محبة وشعور بالحاجة إلى رضا المعبود المحبوب ، وقدوم الحاج للحج بلباس معين يذكره بقدومه على الله عز وجل ، فهو رقى روحي وتأمل وتفكير وحضور جسدي .

أما الرقي الروحي فيما فيه من شعور بالصلة بالله وخشيته ، بدلاله ما في الحج من مناسك تدل على مناجاة المعبود كالوقوف بعرفة والنحر وغيرها .

وأما التأمل والتفكير فيما فيه من تهليل ، وتسبيح ، وتكبير ، وقراءة ، وأذكار ، وحركات ، موجبة للحضور ، الخ .

وأما الحضور الجسدي ففي الحج أعمال بدنية كثيرة تشعر بالامتثال والتذلل للمولى عز وجل .

كما أن الحج يهذب نفس العبد ويزكيها من شوائب المعاصي ، ويربي روحه على حب الخير والتعاون ، بما يعود على المجتمع المسلم عامة بالخير والنفع ؛ لأنه يعود المسلمين التعاون والتعارف ويزيد أواصر التألف بينهم .

فهذه المعاني التربوية تصبح رحلات الحج إلى مكة المكرمة

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

بطابعها وأهميتها؛ لأنها تؤكد هذا الالتزام وتذكر به عندما يقرأها أو يسمعها المسلم من أخوانه الحجاج، ولاسيما أن الحج عبادة إيمانية فيها العمل القلبي والعمل الجسمي والبذل من المال الذي تؤثره النفوس وتحب جمعه لبذلها.

ثم إن من أهم مقاصدتها الإيمانية في المجموع تجمع المسلمين جمياً في أوقات محددة وأمكانية معينة لإظهار الشكر لله تعالى على نعمته سبحانه بالإيمان التي هي أعلى نعمة وتيسيره سبل الطاعات لهم، ودلالته إلى تحصيل الأخوة الإيمانية في اجتماع يتساوى فيه من يحضره إلا بحسب العمل المقرب إلى رضوان الله.

فأيام الحج الفاضلة تتحول بالنسبة لحجاج بيت الله الحرام إلى جامعة إسلامية فذة، يقرأون في موادها تاريخ الإسلام الزاهي وأمجاده العظيمة، وتطوراته القادمة، ذلك أن الحج رباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل، يحكي مشاهد من التضحيات المخلصة والانتصارات الباهرة، المستضيئه بنور العقيدة وصفاء الإيمان وإخلاص النية وصدق العمل، ويحفز النفوس المسلمة نحو العمل الجاد للنهوض بأمتهم مستقبلاً.

ومما يزيد أهمية رحلات الحج أن في الحج رموزاً بارزة وأهدافاً نبيلة تستحق أن يهبها المسلم قدرًا كبيراً من التأمل، وقدراً أكبر من الاعتزاز لعمق أثرها وتأثيرها، فالمسلم يقدُّم إلى البيت الحرام من بلاد بعيدة متکبدًا مشاق السفر ومتحملًا نفقات مالية كثيرة وقد لا يكُون في سعة من المال، ولكنه يستجيب لداعي الله في قوله

سبحانه وتعالى ﴿وَأَدْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ  
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ لَّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ  
مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ  
(١) الفقير﴾

فإذا كانت هذه حال الحاج من الرغبة في رضوان الله والتلبس بالإخبار والقوى فإن اقتاص فرص الخير في قلبه وتشييط نوازع الإقبال على الله في فعله لفسل خطایاه وتنقية دنس روحه إذا تمت بدعة حكيمه بالحسنى فإنها ستكون ميسرة وقريبة من قبول المدعو بأقل جهد من الداعي؛ لأن الظروف تساعد على نجاحها، وإن تجسيد الحكم من أعمال الحج في معانٍ قريبة من فهم المدعو ميدان آخر تنفس فيه الدعوة الحكيمه نجاحاً إثر نجاح بإذن الله لما في ذلك التجسيد من معرفة بحقائق الدين وثواب التوحيد، التي تدني ثمار الموعظة واليقين إلى الأفهام المستقيمة.

إن وسيلة الرحلات من أهم الوسائل التي يمكن من خلال عرض وقائعها ومشاهداتها التأثير في المسلمين، لاستجلاب وعي حقيقي ومؤثر بالمعانى النبيلة والمدلولات السامية للحج، واستحضار أثرها العميق في حياة المسلمين، أفراداً ومجتمعاتٍ وأمة.

وفوق ذلك فإن شخصية صاحب الرحلة قد يكون لها تأثير بلغ في الآخرين لاتتحققه وسيلة أخرى فحدث الإسلام عندما يتحدث بلغته

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

عن رحلته إلى الحج مبدياً ما عاشه من مشاعر إيمانية صافية وتعلمات روحية رائعة لا يربّ أنه سيؤثر في آخرين من حديثي الإسلام يفضي إلى حثّهم على الترقى في الدين والتزود من خيراته علمًاً وعملاً، وربما أثر في غير المسلمين لتفاعلهم مع صاحب الرحلة ورحلته مما يغريهم بالبحث عن حقائق وخصائص هذا الدين الذي أثمر تلك المشاعر الإيمانية المتميزة وتلك التعلمات الروحية الرائدة.

كما أن رحلات العلماء وطلبة العلم بوجه خاص وسيلة مهمة من وسائل تعليم الناس فقه الحج وشرح أحكامه ومراميه لهم.

وفي الجانب الآخر نجد أن الرحلات إلى مكة المكرمة تكتسب خصوصية متميزة لكونها العاصمة المقدسة، التي لها منزلة خاصة عند جميع المسلمين في كل أصقاع الأرض، فيتشوق كل مسلم إلى معرفة الرحلات إليها، ومتسجله عنها من انبطاعات ومشاعر وأحساس تترجم ما يختزنه وجданه من أحاسيسه ومشاعره هو، بالإضافة إلى أن هذه الرحلات تفري الآخرين بالتعرف على سرّ تعلق المسلمين بهذه البقعة المباركة.

لقد بيّنت في مقدمة هذا البحث أن أدب الرحلات من فنون الآداب العالمية العريقة، والآن يمكنني القول بقلب مطمئن إلى الصواب : إن أدب الرحلات إلى الأماكن المقدسة بخصوصه يعد من أرقى مجالات هذا الأدب ؛ لأن الرحلة إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة - والشأن ذاته بالنسبة للرحلة إلى المسجد النبوى في المدينة - تستأثر باهتمام شريحة كبيرة جداً من المسلمين الذين يتطلعون إلى

زيارة هذه المقدسات، فلا يجدون إرواً لظماً أشواقهم سوى ما يكتبه طائفة من إخوانهم الذين حرصوا على تدوين مشاهداتهم ومشاعرهم وانطباعاتهم وأحوالهم في هذه الديار الطاهرة .

من المؤكد أن البيت الحرام - وهو موضوع بحثاً هذا - ظل مصدر إلهام لكثير من الكتاب والمؤلفين العرب وغير العرب الذين أتيحت لهم فرصة الرحلة إلى مكة المكرمة بصفتهم مسلمين، أو حتى بادعائهم الإسلام لإشباع رغبتهم في فهم أسرار تعلق المسلمين بهذه البقعة من الأرض .

لقد حظيت الرحلات الحجازية المدونة بنصيب وافر من الاهتمام بسبب ماتضمنته من التجارب الروحية التي يفصح عنها كاتب الرحلة، ولا سيما عند وصف المناسك والمشاعر المقدسة، ويأتي تبعاً لذلك وصف الأماكن والأسوق وتقالييد الأهالي وطبائعهم وصنوف البشر الوافدين إلى هذه الأرض من كل حدب وصوب، بما يشعر قاريء الرحلة وكأنه مع الرحالة في رحلته .

ومن المؤكد أن أهمية هذا الأدب تختلف في أهميته الثقافية وقيمته الأدبية بحسب قدرة الكاتب على تسجيل التفاصيل الدقيقة والواقع الهامة من رحلته؛ لأن ذلك يرتبط - دون شك - بموهبة الكاتب وإمكاناته الإبداعية والنقدية، وقدرته على توظيف ذلك كله لصالحة المشاهد التي يصنعها في سياق رحلته .

وهذا هو بالذات مولد الصعوبة في تتبع الجوانب الثقافية في أدب الرحلات الحجازية؛ نظراً لأن بعض كتاب الرحلات لا يعيرون هذا الجانب أية أهمية، أو ربما أمحوا إليه إلماحات لاطفليه ظمأ

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

المثقف المطلع إلى إبراز هذا الجانب إبرازاً إثرائياً واضحاً، ولا تشبع حاجة الموضوع إلى البيان والتدقيق والتحقيق العلمي الصحيح، ويتبين هذا من قراءة عدد من الرحلات التي يتضح منها أنها، أو أغلبها سجلت تعبيراً عن الامتنان للاستضافة الرسمية في الحج، حيث تكثر فيها النقول التاريخية المكرورة، وتحتفى الإلماحات المفيدة للمثقف أو المؤرخ الفطن.

في حين نجد أن هناك طائفة منهم أولى الشأن الثقافي أهمية كبيرة من اهتمامات رحلته نظراً لمشاربها الفكرية ذات الطبيعة الثقافية؛ لكونه من زمرة المثقفين، بل ربما كان من رواد الأدب والثقافة وتقاده.

ويمكن ضرب مثال على هذا النوع من الرحالة بجلال آل أحمد الطالقاني، صاحب كتاب (قشة في الميقات) الذي كان من رواد الأدب الفارسي ومن مثقفيه وتقاده المعروفيين ومن الوسط الاجتماعي الراقي ومن الأغنياء، لكنه آثر - كما تفصح عنه مذكرات رحلته - أن يسافر مع القوافل الشعبية الفقيرة.

ويستتج من هذا التصرف الذي أقدم عليه كاتب الرحالة، ومن حديث الطالقاني عن نوع الطعام والمسكن ووسائل النقل، وطبيعة المرافقين أن كاتب الرحلة أراد أن يعيش الصورة الحقيقية لهذه (١) الرحلة، أي معاناة رحلة الحج.

"لم تقتصر مطامح آل أحمد في رحلته على الملاحظات العابرة

١ - انظر : عبدالجبار الرفاعي، رحلة جلال آل محمد إلى الحج، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، الندوة الكبرى، وزارة الحج ط١، ١٤٢٣ هـ ص ٦٧ .

والانطباعات العاجلة، وإنما كان يسعى إلى التوغل في الأبعاد الخفية لما يراه من ظواهر، ويعمل على تحليلها؛ من أجل اكتشاف مضموناتها، وما لا تقوله من نزعات بشرية، وما يدخل في تشكيلاً من عناصر ثقافية .

إنه يحاول أن يسجل ملاحظاته من منظور باحث أنتربولوجي، ولذلك يمكن أن تصنف هذه المذكرات كوثيقة أنتربولوجية لدراسة مهتم بالتعرف على طبائع المجتمعات الإسلامية، وأنماط ثقافاتها، من خلال معايشته الجماعات الواقفة للحج، من تلك المجتمعات، والاختلاط بمن يلتقيه منهم والمبادرة بسؤاله بما يتقنه من العربية أو الإنجليزية " (١) " .

ومما يجدر التوبيه به ماتحتويه كثير من الرحلات الحجازية من معلومات تاريخية هامة، حيث إن غالب كتاب هذه الرحلات يدونون ما يشاهدونه من عمارة البيت الحرام، والحالة الدينية، والجغرافيا السكانية والعمانية، والأسواق، والمتجار، والمكتبات، والكتب، وعن العلماء أو الأدباء والمتقين الذين التقوا بهم، أو حتى الذين سمعوا عنهم في مكة المكرمة، والشوارع، وثقافة السقيا، وثقافة الأكل، وثقافة العادات، وغير ذلك من أنواع الثقافات .

فتتصبح هذه المدونات - مع مرور الزمن - وثائق مهمة للباحثين، والمؤرخين، والدارسين للتاريخ مكة المكرمة وثقافتها، في كل مجالات الحياة؛ لأنها أصبحت من الماضي السحيق، الذي

١ - عبد الجبار الرفاعي، رحلة جلال آل أحمد إلى الحج - مصدر سابق - ص ٦٨ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

لإمكان أن يعرف إلا من خلال كتابات من عايشوه عن قرب وتفاعلوا معه .

وقد لفت انتباه بعض الباحثين غلبةُ الجوانب العلمية على بعض الرحلات، حتى ظن أنها ربما تفقد طبيعتها المؤسسة على تدوين المشاهدات الجغرافية، فيقول : "اصطبغت الرحلات الحجازية التي كتبت في العهد العثماني بكثرة الاستطرادات العلمية والفقهيّة والأدبية، وكادت بذلك تبتعد عن موجب تسميتها تلك ؛ إذ قلت فيها التقييدات للمشاهدات والملحوظات والأوصاف المتعلقة بالمراحل في المسالك عبر المالك في الطريق إلى البيت الحرام، وطفت هذه الظاهرة على تأليف عدد من الرحالة المغاربة، أمثال أبي سالم العياشي - حج عام ١٠٧٢هـ - وأبي علي اليوسي - حج عام ١١٠١هـ - وأحمد بن ناصر - حج عام ١٠٢١هـ - ومحمد الدرعي - حج عام ١١٥٢هـ - والحسين الوريتلاني - حج سنة ١١٨١هـ - ومحمد بن عثمان السنوسي - حج عام ١٢٩٩هـ " <sup>(١)</sup>

يضاف إلى ذلك أن بعض هذه الرحلات استخدمت بعض التقنيات الحديثة المساعدة في عملية التوثيق، مثل التصوير بالكاميرا، وبالرسم .

والحق والعدل أن هذا اللون من التوثيق اختص به - في بواعيره - الرحالة الأجانب، الذين يتقنون استخدام هذه التقنيات،

١ - د/ علي الشنوفي، مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات - بيت الحكمـة - ، ط١، ١٩٨٩م، ص ٩.

وأهم من ذلك أنهم يدركون مدى أهميتها التوثيقية، مثل جون جرفيه (١)، وعبدالله (هاري سانت جون) فيليبي (٢)، وغيرهما من كورتلمون، هواة التصوير الفوتوغرافي والرسم بالريشة.

في حين لم يتطرق هذا اللون في أذهان الرحالة العرب إلا متأخراً جداً، وذلك أمر طبيعي نظراً لحالات الثقافية السائدة في البلاد العربية والبلاد الغربية آنذاك.

وبذلك حقق الرحالة الغربيون أفضلية توثيقية في هذا الجانب، برغم أن استخدام الكاميرا في بعض تلك الأوقات كان محظياً، فكيف به في الحرمين الشريفين؟

فمثلاً تعد الصورة التي التقطها كورتلمون للمسجد النبوى سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م - "من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في المتحف السينمائى روبرت لينن في مدينة باريس" (٣).



١ - جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د. محمد الحناش ، نشر مؤسسة التراث بالرياض ط ١٤٢٣هـ .

٢ - عبدالله (هاري سانت جون) فيليبي ، حاج في الجزيرة العربية ، نشر مكتبة العبيكان بالرياض ، ط ١٤٢١هـ .

٣ - جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د. محمد الحناش - مصدر سابق - ص ١٦ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

### المبحث الأول

#### ( نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة )

يتبيّن من كتابات الرحالة في رحلاتهم الحجازية أنها تناولت مختلف مجالات الثقافة المعرفية، إلى درجة لا تكاد تخطر على بال، كالاهتمام بثقافة الديكور في مكة المكرمة، وثقافة النظافة الشخصية لدى سكان مكة المكرمة كحديثهم عن حرص نسائها على التطيب بالعطر الفاخر، ونحو ذلك مما قد لا يوجد في كتب التاريخ، أو حتى كتب الثقافة العامة.

وقد حرصت في هذا المبحث والمبحث التالي له على تنويع الرحلات المعروضة من حيث زمانها؛ لتعطي فكرة صحيحة عن الثقافة المكية في أزمنة مختلفة، ومن حيث أشخاصها؛ لأن تعدد الأشخاص مئنة تعدد المشارب الفكرية، وبالتالي تعدد وتتنوع المعطيات الثقافية، ومن حيث أمكانه القدوم؛ بحكم أن البيئة التي يعيش فيها الحال تحكم في مشاهدات الرحالة، وفي تفتق ذهنه عن قراءة ما يلاحظه.

وأظنني بحاجة أن أنبه إلى ما يواجه قاريء الرحلات من صعوبة تحديد تاريخها؛ نظراً لأن كاتبها لم يحدد تاريخاً معيناً، فلابد حينئذ من الاجتهاد لتحديد هذا التاريخ من خلال كلام كاتب الرحلة ومن قابله، ووصف عصره.

ولنبدأ بإطلالة مجملة عن الجوانب الثقافية في رحلة محمد بن

أحمد بن جبير الأندلسي (ت ٦٤١هـ)، المسماة (الذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)<sup>(١)</sup>، التي قام بها سنة ٥٧٩هـ.

فقد وصف المسجد الحرام والبيت العتيق، والحجر الأسود، وأبواب الحرم، والمقام، والمنبر، وتحدث عن أممته الحرم ومذاهبهم، وعن أبواب مكة المكرمة، وجبارها، ومشاهدها وآثارها.<sup>(٢)</sup> وتكلم عن عادات أهل اليمن في مكة المكرمة.<sup>(٣)</sup>

وتحدث عن عادات أهل مكة في العمرة، وعن مكانة المرأة المكية آنذاك.<sup>(٤)</sup>

وفي رحلة ابن جبير لابد أن يستوقفنا ما استوقف الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي من أنه كان في رحلته حريصاً على تتبع الآثار المكتوبة، التي تسجل الأعمال العمرانية العظيمة، فهو - مثلاً - ينقل في كتابه ما وجده مكتوبًا في الجهة التي من الغرب إلى الشمال، أمام جدار البلاط "أمر عبدالله، المهدي، أمير المؤمنين - أصلحه الله -

١ - ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، نشر دار النهضة العربية بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢ - انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، - مصدر سابق - ص ٥٩-٣٠.

٣ - انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، - مصدر سابق - ص ٧١، والصواب ماذكره الشيخ حمد الجاسر من أن الذين تحدث عنهم ابن جبير هم من السرو نسبة إلى جبال السروات، وليسوا من اليمن.

٤ - انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، - مصدر سابق - ص ٧٤-٧٥.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

بتوسيعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين  
"ومائة"

ومما وجد مكتوباً في وسط البلات الذي من الجنوب إلى  
الشرق، على ساريتين مقابلتين للركن الأسود، منقوشاً فيهما : "أمر  
عبدالله، محمد المهدي، أمير المؤمنين - أصلحه الله - بإقامة هاتين  
الأسطوانتين ؛ علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ؛ ليتأسى به حاج  
بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة" (١)

وفي رحلة أبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي المغربي  
(ت ٧٢١هـ) المسماة (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة  
الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة) (٢)، التي قام بها سنة أربع وثمانين  
وستمائة من الهجرة النبوية الشريفة تضمن الجزء الخامس منها ما يتعلق  
بالحرمين ومصر والإسكندرية عبر عدد من المحطات الثقافية .

المحطة الثقافية الأولى فيما يتعلق بشقاقة مكة المكرمة تتضمن  
لنا عندما وصل السبتي رابع في طريقه إلى مكة المكرمة فرأى أمراً  
عجبًا من تخلل الوحش الغزال والأرنب بين الجمال والرحال بحيث يناله  
الناس بأيديهم، والناس ينادون حرام حرام، والجوارح قد سُلسلت  
خيفة تundi جاهلي يعتسفُ المجاهل، فقال في ذلك مرافقه: تأمل ترى

١ - عبد العزيز الرفاعي، ابن جبير في الحرمين الشريفين ، نشر بنك الرياض، جدة ١٤١٠هـ ص ٢٣.

٢ - أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى  
الحرمين مكة وطيبة، تحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، نشздار الغرب الإسلامي، ط١،  
١٤٠٨هـ .

عجبًا !، هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق، يؤمنا ونحن محربون، يمرّبّه من الوحش ماترى، فإذا عدنا محلين لم نجد به شيئاً، يقول السبتي : " فلما عدنا كان كما قال، فبان لي من معنى الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَأْتُوكُمُ اللَّهُ يُشَيِّءُ مِنَ الصَّيْدِ شَائِلُهُ أَيْدِيهِكُمْ وَرَمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾<sup>(١)</sup> مالم يمكن بغير المشاهدة "<sup>(٢)</sup>

فهذه الواقعة تحدد نمطًا ثقافيًا سائداً في منطقة مكة المكرمة، وهو الالتزام بالأوامر الشرعية، وقد وظف كاتب الرحلة هذا النمط أحسن توظيف عندما ربطه بمدلول الآية القرآنية الكريمة.

وعندما وافوا مكة المكرمة شرفها الله تلقاهم أهلها وأطفالهم، متعلقين بالناس؛ ليعلمونهم المناسك، وليهدوهم المسالك، قد دربَ صبيانهم على ذلك، وحفظوا من الأدعية والأذكار ما يحسنُ هنالك، كما تحدث عن الأذكار في الطواف عند نزول المطر، وأشار إلى ما يتعلّق به من أحكام فقهية، حيث صادفهم ذلك .<sup>(٣)</sup>

كما أشار إلى أنهم رأوا في ليلة التاسع عجبًا، فيما ابتدعته العامة من الاستعداد والاحتفال بوقود الشمع، بطول تلك الليلة، بالجبل

١ - سورة المائدة، الآية ٤٩.

٢ - أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ٧٥.

٣ - انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ٨٥.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

القائم في وسط عرفات، المعروف عند العرب القدماء بـالإل، موضحاً أن هذه الحالة من قبيح البدع، التي يجب أن يُزجَّر عنها فاعلها، ويردع، وأن الإمام الفقيه ابن الحاجب نبه على ذلك، فقال رحمه الله : "منها إيقادهم لنيران عليه أي الجبل ليلة عرفة واهتمامهم بذلك، باستصحاب الشمع له من بلادهم، واحتلال النساء بالرجال في ذلك، صعوداً وهبوطاً، بالشمع المشتعلة الكثيرة "

ثم يضيف السبتي : "قد تراهم المرأة الجميلة الرجال وبيدها الشمعة الموددة، كاشفة عن وجهها، وهذه ضلاله، شابهوا فيها أهل الشرك في مثل ذلك الموقف الجليل، وإنما أحدثوا ذلك من قريب، حين انقرض أكابر العلماء العاملين، الأمران بالمعروف والناهيان عن المنكر" <sup>(١)</sup>

فهو بهذه الكلمات يضيء لنا محطتين ثقافيتين، الأولى ما هو سائد في زمانه في مكة المكرمة، من ثقافة البدع الوافدة، وقد أشار إلى بدع أخرى، وأشار إلى اتباع عادات أفضت إلى ترك للسنة، كما هي حال الناس في مزدلفة وتركهم الوقوف على قزح . <sup>(٢)</sup>

والمحطة الثانية إشارته إلى انقراض العلماء العاملين الأمران بالمعروف والناهيان عن المنكر في تلك الحقبة الزمنية .

١ - انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ٨٧.

٢ - انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ١٠٣.

ثم يصف السبتي حالة الموقف يوم عرفة، متحسراً على ترأء سنة الجمع بين الصالتين، حتى صار الناس يصلون خلف إمام يتم لهم ولا يحسن السنة، ويؤخر الظهر إلى قرب العصر، مما جعل أهل العلم يصلون فرادى أو وهم مجتمعون في رحالهم، ثم يجيئون إلى الموقف للتشاغل بالذكر والدعاة .<sup>(١)</sup>

فهو هنا ينير لنا جزءاً من الحالة العلمية والثقافية المتدنية في زمن الرحالة، وضعف المرجعية العلمية آنذاك .

ثم يشير السبتي إلى العلماء والفقهاء والفضلاء الذين قابليهم في مكة والمشاعر، وطلب من غالبيهم السمع والإجازة، وذكر شيئاً من مسلسلاتهم وإجازاتهم وسماعاته وسماعاتهم، وممن قابله الفقيه الفتى رضي الدين محمد بن أبي بكر العسقلاني المالكي وهو الذي تدور عليه الفتيا أيام الموسم، وكانت له مواقف مع أمير مكة أبي نمي الأول ومنهم : عَلَمُ الدِّينِ أَحْمَدُ الْعَسْقَلَانِيُّ، وَالْأَدِيبُ الشَّاعِرُ أَمِينُ الدِّينِ عَبْدُ الصَّمْدِ الدَّمْشِقِيُّ، الْمُعْرُوفُ بَابِنِ عَسَّاكِرِ الشَّافِعِيِّ، وَمِنْهُمُ الْمُحَدِّثُ الْإِمَامُ مَحْبُ الدِّينِ أَبُو الْعَبَاسِ الطَّبَرِيِّ الْمَكِيِّ الشَّافِعِيِّ، وَالْإِمَامُ الْبَسْكَرِيُّ، وَأَبُو الْحَسَنِ التَّجَانِيُّ، وَعُمَرُ الصَّوَافُ، وَمِنْهُمُ أَبُو مُحَمَّدِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ الزَّجَاجِ، وَأَبُو القَاسِمِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ الزَّجَاجِ، الْبَغْدَادِيَّانِ، وَذَكَرَ حَادِثَةً طَرِيفَةً وَقَعَتْ لَهُ مَعَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدِ الزَّجَاجِ، فَقَدْ بَانَ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْخُ ضَعْفُ الْبَدْنِ وَالْعَجَزُ عَنِ الْقَعْدِ،

١ - انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ٩٥

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

فبادر البستيُّ إلى وضع وعاءً يحمل فيه كتبه؛ لدعم ركبة الشیخ، فنظر إليه نظرة المغضَّب، وأشار إليه أن استعمال الكتب في مثل هذا امتهان، ومنعه من ذلك .<sup>(١)</sup>

وأوضح أبو عبد الله محمد العبدري في رحلته المسماة (الرحلة المغربية)<sup>(٢)</sup> ، التي قام بها سنة ٦٨٨هـ شيئاً من الخرافات والبدع السائدة في ذلك العصر، مثل الخرافات عند جبل ثور، والياقوتة الحمراء التي وضعت لآدم موضع الكعبة، وكان في نظرته إلى هذه الخرافات منطقاً من روح دينية صافية لا تقبل بغير ما يطابق تعاليم القرآن الكريم وما صح عن النبي ﷺ .

ولذا فإننا نرى العبدري يقرر أن كل العلوم في تقهقر وأضلال، في عواصم العالم الشرقية، إلا ما كان من بعض آحاد الأفراد، ومن لقيهم .<sup>(٣)</sup>

وظهر في رحلة العبدري اهتمام واضح بعلم التاريخ، والسير، وخصوصاً تاريخ الرجال، واحتوت على نقول أدبية كثيرة، نثرية وشعرية، من إنتاج الأدباء والشعراء الذين لقيهم .<sup>(٤)</sup>

١ - انظر : أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة - مصدر سابق - ص ١٢٩-٢٦٢.

٢ - أبو عبد الله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، نشر جامعة محمد الخامس.

٣ - أبو عبد الله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي - مصدر سابق - ، ص ١٨٦-١٩٩.

٤ - انظر : أبو عبد الله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي - مصدر سابق - ص ١١١-١٢٠.

ويحسن أن نسجل هنا قولًا قيل في وصف رحلة العبدري ليتضمن لنا سبب حرصه على الاتجاهات الثقافية في رحلته ؛ إذ قيل : " ينبغي أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهياكل المدن كما تبدو له من بعيد كلام كله إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعي طلق .

وهنا - والرجل على سجيته وراحة نفسه - يتکشف لنا العبدري عن جفرا في ماح يدرك بالنظره الواحدة مالا يدركه غيره <sup>(١)</sup> بالتأمل

وقد أشار إلى ماسجده السبتي والعبدري عن المعطيات الثقافية في مكة المكرمة تقرؤه في رحلة معاصره قاسم بن يوسف التجيبي الأندلسي (ت ٧٣٠ هـ) ، المسماة (مستفاد الرحلة والاغتراب) <sup>(٢)</sup> ، التي قام بها سنة ٦٩٦ هـ، ويهمنا فيها بعض الإشارات الثقافية التي تبرز أهم سمات ثقافة مكة في القرن السابع الهجري ، ومنها :

١ = أنه تكلم عن الحالة المذهبية السائدة ، وبعض البدع المستشرية آنذاك . <sup>(٣)</sup>

٢ = أشار إلى محبة الناس لقراءة القرآن الكريم بالألحان ، متوقفاً عند جمال بعض أصوات القراء ، التي تقاد تخشع لحسنها

١ - د/حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، ط١ ، مدريد ١٣٨٦ هـ ص ٥٢٣ .

٢ - حمد الجاسر ، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي ، العرب س ١١٤ او ٢١ ربـ شعبان ١٣٩٦ هـ .

٣ - انظر : حمد الجاسر ، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق - ص ٥٩ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

(١) الجمادات كما قال .

٣ = تحدث عن المدرسة المنصورية بمكة المكرمة، التي أنشأها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧ هـ) مؤسس الدولة (٢) الرسولية باليمن .

٤ = وصف التجيبي آثار مكة، وظهرت غلبة العاطفة عليه عند (٣) وصفها، حتى إنه ليصدق كلام العامة حولها دون تمحيص وتحدث عن علماء مكة كالعماد الطبرى، الذى روى عنه صحىحي البخارى ومسلم وبعض السنن ومسند الشافعى وغيرها من كتب الحديث، الذى يظهر أنها كانت تحظى بعناية خاصة من العلماء وطلاب العلم في تلك الحقبة التاريخية، كما قرأ كتاب (أخبار مكة) للأزرقى (ت ٢٥٠ هـ). (٤) وقد استطرد التجيبي في ذكر (٥) من لقيهم من العلماء، وما حصل عليه من سماعات منهم .

ونتوقف قليلاً عند رحلة ابن بطوطة المغربي (ت ٧٧٩ هـ)، المسمّاة : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب

---

١ - حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق - ص ٦٠.

٢ - حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق -، ص ٦١ ، ويلاحظ أن غيره من الرحالة نسب المدرسة لغير ملك الدولة الرسولية.

٣ - انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق - ص ٦٢.

٤ - انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق - ص ٦٦-٦٧.

٥ - انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي - مصدر سابق - ص ٧٠-٧١.

(١) ، التي قام بها سنة ٧٢٦ هـ .

فقد تحدث عن ثقافةلباس في مكة المكرمة، فذكر أن أهل مكة المكرمة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكترون السوافك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهن يكترنن التطيب، حتى إن إحداهن لتبث طاوية، وتشتري بقوتها طيباً، وهن يقصدن الطواف بالبيت في ليلة كل جمعة، فيأتين في أحسن زyi، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهنهن فيبقى أثر الطيب (٢) بعد ذهابها عقباً .

وأشار إلى مشاهداته عن بعض عادات المكيين التي تبرز ثقافتهم . (٣)

كما تحدث عن قاضي مكة، وخطيبها، وإمام الموسم، وعلمائها، وصالحائها، والمجاورين فيها، وذكر شيئاً عن المدرسة المظفرية داخل الحرم الشريف . (٤)

١ - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د / حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، نشر دار النهضة العربية بيروت، ط ١، ١٩٩٦م .

٢ - انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د / حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة - مصدر سابق - ص ١٥٢ .

٣ - انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د / حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة - مصدر سابق - ص ١٦١-١٦٧ .

٤ - انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د / حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة - مصدر سابق - ص ١٥٣-١٥٧ .

## **مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام**

وعندما نطالع كتاب (المجموع الظريف في حجة المقام الشريف) لأحمد بن يحيى بن عبدالغنى، المعروف بابن الجيعان (ت ١٢٨٥هـ)، الذي سجل وقائع رحلة الملك الأشرف قايتباي<sup>(١)</sup> ، نجد صوراً ثقافية كثيرة، منها :

أنه أشار إلى دخول قايتباي مكة المكرمة وكان في استقباله القضاة والفقهاء والتجار، وذكر منهم قاضي القضاة البرهانى، ونائب القاضي الشافعى جمال الدين .<sup>(٢)</sup>

كما ذكر أن الملك قايتباي أليس صنّاع العمارة بالمدرسة الشريفة فوqانيات بطرز قريب العشرة، والشادين الصغار توريزيات<sup>(٣)</sup>. بسنجاب .

كما أشار إلى مافعله من الخير والقرىات والصدقات الجاريات بمدرسته التي أنشأها بباب السلام في مكة المكرمة .<sup>(٤)</sup>

١ - ابن الجيعان، أحمد بن يحيى بن شاكر بن عبدالغنى ، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، مخطوطة بدار الكتب المصرية في ١٠٠ ورقة برقم ٨٤٥ جغرافية، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، العرب س ١٠٩٦ ع ١٠٩٦ الربيعان ١٣٩٦هـ ص ٦٥٩-٦٩٦.

٢ - انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ورقة ٥٦ ب و ٥٧ ب من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ص ٦٧٨.

٣ - انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ورقة ٦٠ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ص ٦٧٩. والفوqانيات والتوريزيات أنواع من الأقمشة الملبوسة .

٤ - انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ورقة ٦٧ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ص ٦٧٩.

كما ذكر أن الملك قرر بمكة مشايخ أربعة، من كل مذهب، ومعهم من الطلبة أربعون نفراً، يحضرون كل يوم مجتمعين، وأيام الدروس يجتمع كل شيخ مع طلبة مذهبه، ويدرس العلم.

وأشار إلى أنه جعلهم من أهل مكة، وقرر بالرباط الخلاوي الآفقيّة والغربيّة، وجعل عليهـمـ شيخاً، وقرر لهم خبزاً في كل يوم .<sup>(١)</sup>

ففي هذه المقطفات الثقافية التي تناولها ابن الجيعان يمكننا أن نرى ضوءاً ساطعاً عن الحالة التعليمية في مكة المكرمة في الحقبة الزمنية التي تتحدث عنها الرحلة، وعن طريقة التدريس آنذاك، وعن تشجيع الملوك للعلم والعلماء، وإنشاء الأربطة لإيجاد موارد ثابتة ومتتجدة لصرف على حلقة العلم وطلابها.

ويُنعكس انتشار البدع وطغيانها في أدب الرحلات، فيما نجد في رحلة محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، الملقب ابن مليح، المسماة (أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارات)، الذي حج سنة ١٠٤٠هـ، فهي ابتداء من اسمها إلى تفصياتها ذات نزعة بدعاية واضحة .<sup>(٢)</sup>

١ - انظر : ابن الجيعان، المجموع الطريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ورقة ٦٧ ب و ٦٨ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الطريف في حجة المقام الشريف، - مصدر سابق - ص ٦٨١ .

٢ - ابن مليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمأرب سيد الأعاجم والأعارات، تحقيق محمد الفاسي، نشر وزارة الثقافة والتعليم بالمغرب، فاس ١٣٨٨هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ونجد الصورة الثقافية لذلك العصر واضحة في رحلة أوليا جلبي<sup>(١)</sup> - دميرجي، أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي، الذي حج عام ١٠٨٢هـ (١٦٧١م)، حيث ذكر أوصاف مدارس مكة، وقرر أن في الحرم حين رحلته أربعين مدرسة، وصفها بأنها عظيمة، ومنها : مدرسة باب السلام، ومدرسة السلطان قايتباي، والمدارس الأربع من مآثر السلطان سليمان خان .<sup>(٢)</sup>

كما تحدث عن العيون والأسبلة والعمارات الخيرية، وحمامات مكة<sup>(٣)</sup>.

ووصف نساء مكة، وأطبب كثيراً في الحديث عن جمالهن، ولطفهن، وملابسهن .<sup>(٤)</sup>

ووصف كتاتيب الصبيان، ودور القرآن، ودار الحديث في مكة التي ذكر أنها في أربعين مكاناً بمكة تعقد فيها الدروس .<sup>(٥)</sup>

ونجد ملامح أخرى عن الثقافة العامة السائدة في مكة المكرمة من خلال رحلة عبدالغنى إسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣هـ) ،

١ - أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، ترجمها وقدم لها د/الصفصافي أحمد المرسى، نشر دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م.

٢ - انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٦٥-٢٦٧ .

٣ - انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٦٩-٢٧٤ .

٤ - انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٧٧ .

٥ - انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٧٨-٢٧٩ .

المسمة (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاج)، التي قام بها سنة ١١٠٥هـ، حيث تحدث عن المدارس في الحرم المكي الشريف، وما فيها من كتب موقوفة، وما ألت إليه في عصر كاتب الرحلة، كما تحدث عن عدد من العلماء والفقهاء الذين أدركهم، وأثني على علمهم، وإن كان قد أكثر من الحديث عن المزارات والقبور، مما يدل على تدني الحالة الثقافية في مكة المكرمة آنذاك.<sup>(١)</sup>

وعندما نطالع رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى، التي قام بها عام ١١٤٣هـ<sup>(٢)</sup>، فإننا سنجد عدداً من الدلالات الثقافية، التي يمكن تبيان ملامحها في النقاط الرئيسية التالية :

١ = "أنه كان في مصاحبتها وفد يتكون من بعض العلماء والموظفين الذين وثق ملك المغرب في علمهم وأخلاقهم وحصافة عقولهم".<sup>(٣)</sup>

٢ = دلالتها على "ما كان للمغاربة من العناية بمختلف الفنون والعلوم، ومن التشوّق إلى الاطلاع على أحوال أخوانهم المسلمين، وتتبع أخبارهم، وعاداتهم وتسجيلها تسجيلاً يفيد الذين يرغبون في التوجّه

١ - انظر : عبدالغنى إسماعيل النابلسى، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاج، إعداد أحمد هريدي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٤٥٠-٤٥٢هـ.

٢ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاج، العرب س ٢٠٩ ع ١٤٠٦هـ.

٣ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاج، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٢.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

للحج، سواء من الناحية الجغرافية، أو التاريخية، أو الأدبية، أو العلمية، أو غير ذلك من مختلف الأحوال الثقافية المفيدة" (١)

"برع الإسحاقى في تدوين مختلف المراحل، وأبدى عناء فائقة بكثير من الدقائق العلمية والأدبية، وأكثر من نقل الأشعار، ومن نقل النصوص العامة، المتعلقة بوصف الأقاليم، أو بوصف بعض المزارات، مما يدل على أن الكتاب كان يجمع بين الطريف والتلذيد" (٢)

"الإسحاقى من خلال رحلته كان يدعو إلى الفهم والتأمل واسعة الخاطر مع الاعتزاز بالكرامة النفسية، والافتخار بالهمة الذاتية، فليس هناك مايفسد العلم مثل الحفظ الآلي، الذي لا يكون معه تدبر، ولاقدرة على المناقشة والمعارضة، وحضور البديهة" (٣)

وهي دلالة أكيدة على نمط البيئة الثقافية السائدة في عصره، وتحسره على هذا النمط، ودعوه إلى تعديله.

"الإسحاقى كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية، وكانت له عناء بذكر الأشعار، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون

١ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٢.

٢ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٣.

٣ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٨.

الفكر، سواء أكانت مرتبطة بالإطار الفقهي، أو بالإطار التاريخي، أو بالإطار الاجتماعي<sup>(١)</sup>

٦ = "لاتستطيع إشارة عابرة أن تحدد جميع ما كان يشير اهتمام الوزير الإسحاقى أثناء رحلته، إلا أن الطابع العلمي، والتاريخي، والتروي، لا يمكن إهماله؛ ذلك أن الإسحاقى كان يجد لذة في الإشارة إلى ذلك، ومتعدة في التعليق على ما يرتبط بهذه الاتجاهات"<sup>(٢)</sup>

٧ = في رحلة الوزير الإسحاقى إشارات واضحة إلى علم الأثبات<sup>(٣)</sup> ، وعناية فائقة به، ومن ذلك إشارته إلى أن مفتى الحنفية كتب له سنه المتصل عن شيوخه، وشيخ شيوخه إلى أبي قابوس مولى عبدالله بن عمرو بن العاص، عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ، مما يؤكد عنابة العلماء بهذا الفن في عصر كاتب الرحلة .<sup>(٤)</sup>

١ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٣.

٢ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٧١.

٣ - الأثبات : جمع ثَبَتَ - بفتح أوله وثانيه - والثبت في اللغة كما عرفه الزبيدي في تاج العروس ١/٥٣٤ (هو الفهرس الذي يجمع فيه المحدث مروياته وأشيائه) وفي الاصطلاح هو معرفته به الإمام ابن حزم الأندلسي - الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/٢٢١ - بقوله : (نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال يخبر كل واحد باسم الذي أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان ) ، غير أن هذا العلم برغم أهميته الثقافية المتميزة في حياة الأفراد بل الأمة بأسرها؛ فإنه يعد من أصعب العلوم، ولذا كان العارفون فيه قليل والمبدعون له أقل؛ لما يحتاجه من قدرات التتبع والفهم وتميز الأحكام والأشخاص، ولصعوبة تبعاته وتتنوع مجالاته.

٤ - انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، ص ٦٧٥.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

٨ = عندما نتoggler في قراءة ما كتبه الإسحاقي، وفي تحليل أبعاده سنجد أنه جمع بين روح الأديب وعقل العالم، يظهر ذلك من أسلوبه الساخر في تدوين قصة ذلك الرجل، الذي أراد أن يسترزق من الوفد المغربي بالشعر .<sup>(١)</sup>

٩ = في مكة المكرمة اتصل الوزير الإسحاقي بعدد من العلماء والفضلاء، من المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة، مما يدل على تنوع المشارب الفقهية، ونشاط الحركة الفكرية؛ نتيجة تعدد الحلقات العلمية في الحرم الشريف آنذاك .

ومن لقائه وأظهر فضله الشيخ محمد الطبرى شيخ المقام الحنبلي، والشيخ تاج الدين مفتى الحنفية، وأخذ عنه بعض المسلسلات، والشيخ عمر البار الحسيني، والحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عقبة المكي، الذي أشار إلى عدد من تأليفه، وذكر أنه نال منه الإجازة في رواية مسلسلات .<sup>(٢)</sup>

١٠ = تحدث الوزير الإسحاقي عن المشاعر - عرفات ومنى ومزدلفة - وعن الأحكام المتعلقة بها، وعن الأحاديث الواردة فيها، ونقل أقوال العلماء في مواضعها وسمياتها، ووقت الصلاة فيها،

١ - انظر القصة كاملة : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٥٩.

٢ - انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٧٣-٦٧٥، وانظر فيمن لقيهم الوزير الإسحاقي بمكة : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س ٢٠ ع ٨٧، محرم وصفر ٤٠١ھ، ص ٥٢٨-٥٣٧.

وأقوال العلماء في موقف عرفات، والجمرات، وأسماء مكة، وماورد  
في تاريخها، والكعبة وماقيل فيها .<sup>(١)</sup>

١١ = غشيت الرحلة سحابة التعبير الأدبية الجميلة، التي  
كانت تظلل السائر في مراحلها، وحسبى أن أضرب مثالين مماليه  
علاقة بالجوانب الثقافية لمكة المكرمة .

**المثال الأول :** عندما تحدث عن ثقافة الحوار السائدة في  
عصره، التي لا تقبل التسلیم للطرف الآخر مهما كان الحق، حيث  
كتب في رحلته : " سلطان مكة السلطان عبدالله - أصلحه الله -،  
وهو الذي حجز ابني أميري الحج المصري والشامي، في أيهما يقف  
أولاً، وأيهما لا ينفر أولاً، حتى كادت عياب الود بينهما تصرف، حتى  
توافت سماشرة الفتنة، من الفريقين، وسلم الله ذلك الجمع السالم من  
التغيير، والتکسیر "<sup>(٢)</sup>

**والمثال الثاني :** عندما تحدث عن ثقافة التعامل مع إحرام  
الكعبة بالتشمير، فكتب عن ذلك يقول : " شمرت أستار الكعبة إلى  
نحو قامة ونصف القامة من الجدار، من الجوانب الأربع، ويسمون  
ذلك إحراماً لها، فيقولون : أحرمت الكعبة، وبهذا جرت العادة دائمًا  
في أيام الحج، ولا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة، فكان  
ذلك التشمير إيزاناً بالتشمير للسفر، وإيزاناً بقرب

١ - انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س٢٠ ع٢١، رجب  
وشعبان ١٤٠٥هـ، ص ١٠٨-١١٠.

٢ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، - المصدر السابق -، ١١١.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

وداعها، لا جعله الله آخر وداع<sup>(١)</sup>

١٢ = في رحلة الوزير الإسحاقى عدد من الطائف المتعلقة  
بالجوانب الثقافية السائدة في عصره، وحسبى أن أورد مثالين منها .

**المثال الأول :** عندما تحدث عن العراق على موارد الماء بالعصي والسيوف، حتى إنه رأى طفلاً صغيراً يتلوى من العطش، فأخذ دينار ذهب ليشتري له به ماء فلم يجده، ثم ذهب إلى أمير الحج المصري فوجده يسقي إبله، وهو يعرفه، وطلب منه الماء للطفل فلم يجده، وتعجب من هذه المفارقة، أن يقدم سقي الإبل على إغاثة الإنسان، ثم تحدث عن ثقافة هذه الطائفة بأسلوب ماتع .<sup>(٢)</sup>

**المثال الثاني :** عند حديثه عن الذين يتسللون في فريضة الصلاة، والوضوء؛ بحجة السفر، وعن الذين يسافرون إلى الحج بقصد الخدمة والاتجار فحسب، حتى تحول الحج عندهم إلى صفقة بأجرة معروفة، ثم استطرد في ذم هذه الطائفة وبيان حرمانها من الثقافة الدينية الصحيحة .<sup>(٣)</sup>

وفي جانب ثقافي آخر نجد أن محمد صادق باشا (ت ١٩٠٢ م)  
في رحلته المسماة (الرحلات الحجازية)، التي قام بها عام ١٢٩٧ هـ<sup>(٤)</sup> ،

١ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - المصدر السابق -، ١١٣.

٢ - انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، العرب س ٢٠٣ ع ٤٠٤، رمضان وشوال ١٤٠٥ هـ، ص ٢٦٦.

٣ - انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز - مصدر سابق - ص ٢٦٧.

٤ - محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، إعداد محمد همام فكري، دار بدر للنشر.

وأشار إلى أن وراء زمزم قبتين إحداهما محل للمؤقت، والأخرى خزانة للكتب<sup>(١)</sup>، كما أشار إلى العملات المستخدمة في مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>، والخدمات الطبية المقدمة لتشريف الحجاج<sup>(٣)</sup>، كما تحدث عن أدعية الطب من الأعراب وشيوخ ثقافتهم الدوائية التي سببت كثيراً من المشكلات والماسي، بسبب التحايل وادعاء التطبيب من أجل الارتزاق<sup>(٤)</sup>.

ووصف الثقافة العمرانية في زمن رحلته، من حيث طراز أبنية مكة المكرمة، ودكاكينها<sup>(٥)</sup>، كما وصف عادات الزواج فيها<sup>(٦)</sup>، ووصف عادات أهلها بعد انتهاء موسم الحج، وسجل بعض غرائب عاداتهم<sup>(٧)</sup>.

وفي رحلة محمد بن عثمان السنوسي (ت ١٣١٨هـ) المسماة (الرحلة الحجازية)<sup>(٨)</sup>، التي قام بها عام ١٢٩٩هـ نجد إضاءات واضحة حول الجوانب الثقافية، حيث عُنيَ كاتب الرحلة بما يجري في مكة من نشاط علمي وثقافي، واستوقفه طويلاً تشابه طريقة التدريس

١ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١٠٦.

٢ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١٠٧.

٣ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١١٢.

٤ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١١٦-١١٧.

٥ - محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١٧٨.

٦ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ١٨٠.

٧ - انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٠١-٢٠٣.

٨ - محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، ط ١، ١٤٠١هـ.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

في الحرم المكي مع طريقة التدريس في تونس، من حيث إلقاء المسألة، ثم تطبيقها على الكتاب .<sup>(١)</sup>

كما نبه السنوسي إلى الثقافة اللغوية عند أهل مكة، ذاكراً أن شجون الحديث تدعوه إلى ذكر مارأى عليه علماء الحجاز من عنایتهم بعدة لغات، "أكثرها عندهم اللسان التركي، الذي هو لسان الدولة العلية، واللسان الفارسي؛ لكمال امتزاجه باللسان التركي، واللسان الهندي؛ لكثرة الوافدين من الهند، واللسان الحبشي، ولسان أهل جاوة، وهاته الألسن زيادة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب "<sup>(٢)</sup>

وتعجب من أن العلماء في الحجاز "يقرئون العلوم الدينية والآلية احتساباً، وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين، ولا من إدارة الأوقاف، بحيث إنه لا جرایة على التدريس، ولا للمدارس أصلاً مع أن صنف العلماء لامحالة مستحق من بيت المال"<sup>(٣)</sup>

كما تناول في رحلته الثقافة الطبية في الحجاز، فتحدث عن الحجز الصحي، واستفاض في الحديث عن مسألة انتقال العدوى، وعن ثقافة الطبيب، عند تناوله قضية التعجيل بحياة المريض، وإهانة المرضى .<sup>(٤)</sup>

١ - محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوي - مصدر سابق - ص ١٧٨.

٢ - محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٥٧.

٣ - محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٢٣.

٤ - انظر : محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٧٦.

وفي رحلة محمد بن صالح الجودي القيرواني (ت ١٣٦٥هـ)، المسماة (رحلة التميمي التونسي إلى الحج) <sup>(١)</sup> نجد توضيحاً أكثر وبياناً أوفى عن تلك الحالة الثقافية، حيث ذكر كثيراً من الموضع والآثار في مكة المكرمة، وأشار إلى تفاصيل حد قطع يد السارق في سارقين، وحد القتل في قاتل. <sup>(٢)</sup>

وأشار بصراحة إلى ما اتصف به ذلك العصر في العالم الإسلامي من جمود فكري، وهيمنة للبدع والخرافات على كثير من عقول المنتسبين للعلم في البلاد الإسلامية، ومنها المدينتان الكريمتان مكة المكرمة والمدينة . <sup>(٣)</sup>

ونجد أن إبراهيم رفعت باشا قد سجل انطباعاته عن جوانب ثقافية في مكة من خلال رحلاته الأربع في الأعوام ١٣١٨، ١٣٢١، ١٣٢٠، ١٣٢٥هـ، المسماة (مرأة الحرمين أو الرحلات الحجازية) <sup>(٤)</sup> ، لافتاً النظر إلى بعض عادات المكيين بعد موسم الحج . <sup>(٥)</sup> كما تحدث عن آثار مكة المكرمة ومساجدها القديمة،

١ - حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج، العرب س ١٦ ع ٣٤، رمضان وشوال ١٤٠١هـ، وعدد ٧٠٨ محرم وصفر ١٤٠٢هـ.

٢ - انظر : حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج - مصدر سابق - العرب ع ٣٤، رمضان وشوال ١٤٠١هـ، ص ٢٥٤-٢٥٧.

٣ - انظر : حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج - مصدر سابق - العرب ع ٨٧، محرم وصفر ١٤٠٢هـ، ص ٥٦٠.

٤ - إبراهيم رفعت باشا ، مرأة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، دار الكتب المصرية، ط١ القاهرة، ١٣٤٤هـ.

٥ - إبراهيم رفعت باشا ، مرأة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية - مصدر سابق - ص ٦٣.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

(١) وعن أمرائها منذ فتحها إلى زمن الرحالة .

ولرحالة محمد لبيب البتوبي (ت ١٣٥٧هـ)، المسماة (الرحالة الحجازية)<sup>(٢)</sup>، التي قام بها برفقة عباس حلمي باشا خديوي مصر سنة ١٣٢٧هـ أهمية ثقافية؛ لكثرة ما تناول فيها من جوانب ثقافية متنوعة، فقد تناولت رحلته الحديث عن عوائل مكة، ولغتهم<sup>(٣)</sup>، والتلغراف والبريد، وحمامات مكة<sup>(٤)</sup>، وتحدث عن مطبعة مكة، وجرايدها، ومكتباتها، ومدارسها، وطريقة التدريس في الحرم،<sup>(٥)</sup> والنقود المستخدمة آنذاك .

كما تحدث عن شيخ الحرم، وأئمته، وخطبائه، والآثار في مكة .<sup>(٦)</sup>

ورحلة الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، المسماة (رحلة الحجاز)<sup>(٧)</sup>، التي قام بها سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة يتبين منها أن الشيخ ومن أجل الاستعداد لسفر الحج أشغل نفسه بتأليف رسالة في المذاهب يبين فيها أحكامه

١ - انظر : إبراهيم رفت باشا ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية - مصدر سابق - ص ٣٢٥-٣٥٦ .

٢ - محمد لبيب البتوبي، الرحلة الحجازية، مكتبة الثقافة الدينية بمصر، ١٤١٥هـ .

٣ - انظر : محمد لبيب البتوبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٢١-١٢٢ .

٤ - انظر : محمد لبيب البتوبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٣١-١٣٢ .

٥ - انظر : محمد لبيب البتوبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٣٢-١٣٥ .

٦ - انظر : محمد لبيب البتوبي، الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٦٢-١٧٦ .

٧ - محمد رشيد رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا - الرحلة الحجازية، جمع د/يوسف ايبيش، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط٢، ١٩٧٩م .

وحكمة بعبارة سهلة مأخذة مما صح في السنة ليحملها معه هدية للحجاج الذين يصاحبهم ويلقاهم فجاءت في أكثر من كراستين إلا أن الوقت ضاق على تصحيحها وطبع كمية كبيرة منها فاكتفى بحمل مئات منها .

كما تحدث عن بعض الفضلاء من الفقهاء والأدباء الذين صاحبهم في رحلته ووصف مجالسه معهم، كما وصف أصحاب الطرق البدعية في الذكر والغفاء والذين ينادون بعض الأموات من الأولياء ومن هؤلاء أحد أهل الطريق المتصنعين الذين يراغبون الناس بلحاظهم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم فتلتطف في وعظه وإقناعه بترك ذلك الصياغ ولكنّه أقل منه ولم يتركه البتة .<sup>(١)</sup>

وأشار إلى الشيخ محمد نصيف والفضلاء الذين قابلهم، ثم دون في سجلات رحلته كلاماً أدبياً وحكاماً بليفة في بيان أسس العلاقة بين الناس وأهمية التمسك بالحق على ما يصيب المتمسك به من الأذى وفضل الابتعاد عن الأخذ من الحضارات الوافدة .<sup>(٢)</sup>

ودون كلماتٍ جميلةً عن الحالة الروحية عند أداء المناسك والمعاني الإيمانية والتربوية والآثار البدنية للحج، وعن حكم الطواف والسعى، وعن بعض الأحكام الفقهية المهمة، مما يدل على سعة علم الرجل وفقهه وقوته بيانه .

١ - انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا - الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٠٦-١١٢ .

٢ - انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا - الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١١٩-١٢٠ . وص ٢١٠ .

مكّة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

فكان مما قاله : فلما عادوا - أي الم Shi'ites له - من جدة،  
وولى النهار بأنسه وبهائه، وأقبل الليل بوحشته وظلماته هدأت المشاعر  
وقرت الناظر وخشعت السرائر وتزاحمت الخواطر، فكان الغالبُ  
منها على الفكر والقلب ما يشيره تأثير الزمان والمكان وزعي الإحرام في  
النفس، فأما الزمان فشهر ذي الحجة المحرم، وأما المكان فهو الطريقُ  
إلى بيت الله الحرام، وأما زعي الإحرام فهو الذي كان يتزيّا به إبراهيم  
خليل الله وإسماعيل ذبيح الله ومحمد خاتمُ رسول الله .

ثم يمضي في وصف حالته البدنية والروحية ليقرر بعد ذلك  
قائلاً : تلك التلبية تملأ قلب متذمّرها إيماناً وتوحيداً وتجرّده من  
الحظوظ والأهواء تجريداً وتعده لزيارة بيت الله والطواف وهو في  
أحسن حال وأتم استعداد .

وهو يكرر هذه المعاني والتأملات في كل موضع من مواضع أداء نسكه في بيان بديع وحكم بليفة مؤثرة تجعل الإنسان كما يقول (١) يدخل الحرم المقدس طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس.

مبزاً أهمية تعظيمِ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أَعْمَالِ النَّاسِ  
ولاقتَ الْنَّظرُ إِلَى فَائِدَةِ وَجُودِ الْمَشَاعرِ الْمَقْدِسَةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا التَّعْظِيمِ  
مِنْهَا إِلَى السِّنَنِ الشَّرِيعِيَّةِ الَّتِي صَحَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ  
وَلَاسِيمَا فِي التَّلْبِيَّةِ وَالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ حَتَّىٰ يَقُولُ : فَمَنْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَّا  
وَالْمَرْوَةِ عَالِمًا بِمَا ذَكَرْتُ مَتَذَكِّرًا مُعْتَبِرًا بِهِ فَإِنَّهُ يَشْعُرُ فِي قَلْبِهِ بِنَمَاءِ

١- انظر : محمد رشید رضا ، رحلات الإمام محمد رشید رضا - الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٣٢-١٣٠ .

الإيمان بالله وبرسل الله ويفهم سر قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم تحدث عن ثقافة السكان في التعامل مع نقص المياه مشيراً إلى مصنع الثلج المتعطل وتجميد الهنود الماء في قوالب من الزنك لبيعها على الحجاج بأثمان عالية ، لينقل الحديث في تدوين رحلته بعد ذلك إلى الجوانب الأدبية متحدثاً عن أيام منى ولياليها مبرزاً نصوص الشرع والأحكام الفقهية المتعلقة بها أولأ ثم أقوال الشعراء فيها ثانياً مع توسيع في المدلولات اللغوية ومعانيها منها إلى أن أيام منى في الإسلام من أطيب أيام الحياة لما فيها من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية .<sup>(٢)</sup>

وأعلن استثناءه من ظاهرة التسول التي تدل على ثقافة متدنية .<sup>(٣)</sup>

ومن منطلق آخر أبرزت رحلة سعد بن أحمد الريبيعة ، المسماة (رحلة الحاج من بلد الزيير بن العوام إلى البلد الحرام)<sup>(٤)</sup> ، التي قام بها سنة ١٣٤٥هـ إضاءات ثقافية في زمنها ؛ حيث كتبها بأسلوب أدبي

١ - سورة البقرة، الآية ١٥٨.

٢ - انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ٢٠٦-٢٠٧ .

٣ - انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية - مصدر سابق - ص ١٣٠-١٣٢ .

٤ - سعد بن أحمد الريبيعة ، رحلة الحاج من بلد الزيير بن العوام إلى البلد الحرام ، إعداد : سعود بن عبدالعزيز الريبيعة ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٤هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

رائع ولا سيما حديثه عن طبيعة انفعالاته، بل وعن انفعالات الشرقيين عموماً، ولم يخل حديثه من الدعابة المحببة كوصفه تكالب القوم على القهوة ومأمعها بأنه مثل تداعي الأمم الاستعمارية على مواطن الضعفاء !<sup>(١)</sup>

وبرزت ثافة المؤلف الجغرافية من استعانته بأدوات علمية لقياس درجة الحرارة<sup>(٢)</sup> ، ومن خلال وصف ما رأه من جبال وأودية ورياح وأمطار وغيرها وصفاً دقيقاً ومؤثراً، كما هو واضح من وصفه مواطن الجمال التي تخلب الألباب في الدهناء التي دخلوها من عبر الخريمة، وصراحته في تلبية رغبته في التمرغ على رمالها الذهبية والتلال المكسوة بالكلأ النظير، وقضاء لياليه منها، ومن وصفه جريان رمال النفوذ على الأرض جريان الماء في النهر .<sup>(٣)</sup>

وفي وصفه لمناسك الحج ومشاعره أوضح ما كانت عليه الحال من الزحام والضنك الشديد والخوف من الإبل العابرة وشدة الحر وهجمة البعوض والروائح الكريهة المنبعثة من اللحوم الملقاة هنا وهناك وجيف الكلاب والهرة، مما يوحى بطبيعة الثقافة السائدة آنذاك.<sup>(٤)</sup>

١ - انظر : سعد بن أحمد الريبيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام - مصدر سابق - ص ٢٠ - ٢١.

٢ - انظر : سعد بن أحمد الريبيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام - مصدر سابق - ص ٢٢.

٣ - انظر : سعد بن أحمد الريبيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام - مصدر سابق - ص ٣٧.

٤ - انظر : سعد بن أحمد الريبيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام - مصدر سابق - ص ٨٣ - ٨٢.

وكان أشد ما آلمه وقطع قلبه أسى وحسرة وأبدع في وصفه أيما إبداع، وهو مما يتعلق بشقاقة الناس منظر الخلائق التي لا تعدد ولا تحصى على تباين صورهم وأجناسهم لاترى منهم واحداً عليه سيماء الخشوع والرعب وهم يؤدون مناسكهم، بل كلهم كأنهم في أشغال خصوصية، والكل منهم يتهالك على قضاء شفته ويتدبر لقضائه بكل الطرق حسنتها وقبيحها، فترى القوي يدفع الضعفاء والشيخ والعجزة ولابيالي بمصيرهم، حالة يبكي عليها الإسلام ويسأل المصلحون إصلاحها .<sup>(١)</sup>

حرص المؤلف على القيام بمسح شامل للحرم في تاريخ الرحلة متحدثاً عن أطواله ومشتملاته وسقايف المذاهب الفقهية التي يصلى فيها إمام كل مذهب إلى أن جمعهم الملك عبدالعزيز على إمام واحد .

وتناولت رحلة الأمير شكيب أرسلان، المسماة (الارتسمات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف)<sup>(٢)</sup> ، التي قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لعام ثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد جوانب ثقافية مهمة .

تحدث المؤلف عن مكة المكرمة من حيث صفتها الحسية ومكانتها المعنية وكعبتها البهية وهي القلوب إليها من جميع البرية

١ - انظر : سعد بن أحمد الريبيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام - مصدر سابق - ص ٨٢-٨١.

٢ - شكيب أرسلان، الارتسمات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، نشر مكتبة المعارف بالطائف بتعليق محمد رشيد رضا وعبدالرازق محمد سعيد كمال عام ١٣٩٧هـ.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ورزقها من جميع الأغذية والثمرات استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، وفي هذا السياق أشار المؤلف إلى أن المجلوب مكة من أصناف الحبوب والخضروات والفواكه والمحمول إليها من البضائع والمتاجر والملابس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق ما يجلب إلى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر، ولا يكاد الحاج يشهي شيئاً إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة، ثم تحدث عن مصادر المياه في مكة، ولا سيما عن آبارها منذ عهد الجahليّة، وعن عين زبيدة، وعن عين الزعفران، وعن معاناة الحجاج عند طلب الماء، حتى جاء عهد الملك عبدالعزيز فزادت سبل الماء وأنشأ مصنعين للتلوج بمكة .<sup>(١)</sup>

ثم تحدث عن الحر في مكة، وأنه نوعان، أحدهما الومد وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح، والثاني السموم وهو الريح الحارة وهذه الريح إذا اتقاها الإنسان بمنشفة مبلولة بالماء أو بحصير مرشوش بالماء معلق فوق باب أو نافذة تحولت إلى باردة .

وألمح بفهم عميق وتحليل سديد إلى فائدة هذه الحرارة وأنها لحكمة إلهية عظيمة أنها تقتل بشدتها الجراثيم المضرة في موسّم اجتماع الناس<sup>(٢)</sup>

وفي دعوة للانفتاح على الثقافات الأخرى أشار إلى ضرورة بذل

١ - انظر : شكيّب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، - مصدر سابق - ص ٤٤-٤٩.

٢ - انظر : شكيّب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، - مصدر سابق - ص ٥٠.

الجهد لتخفييف حرارة الأماكن الصحراوية كما فعل الأوروبيين في بلادهم الصحراوية المماثلة للمناطق الحجازية بما أسالوا إليها من مياه وما غرسوا فيها من أشجار وما أحذثوا من مروج خضراء، واقتصر حضر آبار ارتوازية في صحراء عرفة ومزدلفة ومنى تمهيداً لتشجيرها منبهأً إلى طبيعتها الجيولوجية القابلة لهذا ، مستشهدأ بما جاء في معجم البلدان عن آبار عرفة ورياضها وغياضها وسقاياتها وحياضها ومزارعها .<sup>(١)</sup>

وتحدث عن ذات عرق مستشهدأ بما قيل عنها في كتب البلدانيات وعن سوق عكاظ وما قيل فيها نثراً وشعرأ وعن أسواق العرب .<sup>(٢)</sup>

ورحلة الأمير شكيب أرسلان مليئة بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية والأدبية بل وتحدث عن عدد من القبائل العربية وماتمتاز به كل قبيلة ومنازلها وعلاقاتها بغيرها من القبائل الأخرى .<sup>(٣)</sup>

ومن الرحلات التي اصطبغت بصبغة أدبية جميلة ؛ رحلة غلام رسول مهر لأداء الحج ، المسماة ( يوميات رحلة في الحجاز )<sup>(٤)</sup> ، التي

١ - انظر : شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، - مصدر سابق - ص ٥٦-٥٤ .

٢ - انظر : شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، - مصدر سابق - ص ١٤٨-١٥٠ .

٣ - انظر : شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، - مصدر سابق - ص ٣٢٩-٣٤٠ .

٤ - غلام رسول مهر ، يوميات رحلة في الحجاز ، ترجمة د / سمير عبدالحميد إبراهيم ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤١٧ هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، فقد وصف بأسلوب بديع منظر الحجاج فوق السفينة وهم يسارعون إلى ارتداء ملابس الإحرام والتجهز له والتلبية مع خيوط الصباح الأولى من ذلك اليوم استعداداً للحدث المشهود، واستوقفه مشهد الرؤوس العارية والأجساد الملفوفة بالبياض والألسنة اللاهجة بالدعاء، وترك العنان لخلجات نفسه في تلك اللحظات تأثراً بالمشهد الماثل أمامه، وتعبيراً عن أهميته الإيمانية والتربوية والنفسية فقال : " هناك الكثير من المعلومات يعرفها الناس عن الإحرام لكن المعلومات التي تأتي في ذهن المحرم نفسه المشارك مع جماعة المحرمين لا يعرفها إلا من يخوض تجربة الإحرام ذاتها، وأدعوا الله أن يوفق كل مسلم على وجه البساطة إلى أن يمر بهذه المرحلة المقدسة مرة واحدة على الأقل في حياته فبدون هذا الأمر لا يمكن أن يفهم المكانة المركزية لبيت الله الحرام والسر الحقيقي لعظمته اجتماع هذا الدين القيم " <sup>(١)</sup>

يقصد أنه يتمنى أن يتمكن كل مسلم من أداء هذا الركن العظيم ليستشعر آثاره العظيمة في وحدة الأمة الإسلامية، وثقافتها، وفي تطبيق المساواة الحقيقية بين المسلمين .

وأشار إلى أن عدداً كبيراً من الحجاج القادمين بالبواخر كانوا ينتقلون من جدة إلى مكة مشياً على الأقدام ووصفهم بأنهم سلسلة بشرية على طول الطريق لم تقطع حتى وصولهم إلى مكة، وأوضح شيئاً عن ثقافتهم فذكر أنهم يلجمون إلى قمم الجبال للراحة ويستندون عسيب النخل أو بعض فروع الشجر إلى الصخور أو الأحجار

١ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٤ .

(١) ثم يضعون فوقها الملابس لتظلمهم فكانت هذه هي خيمتهم.

وفي رحلة غلام رسول مهر دعاية محيبة تجذب القاريء إليها، فهو مثلاً حينما آوى إلى فراشه لم يستطع النوم بسبب البعض فيقول بأسلوب أدبي ساخر: "لم نكد نشعر بلذة النوم حتى هوجمنا بجيشه من البعض لم أتذكرة شاعر الأردية ذوق ولم أكن أبداً بحاجة إلى أن أتذكرة وطبقاً لقول العالمة أبي الكلام أزاد إن أشعار ذوق بعيدة عن ذوقنا تماماً، لكن حملة البعض هذه جعلتني رغمأً عنى أتذكرة قول الشاعر ذوق :

أهناك من يتعلم طبع الشجاعة من البعض

(٢) حين يأتي لص الدماء يطنطن في البداية البعض"

ثم تحدث غلام في تسلسل أحداث رحلته عن عدد من الأعلام من العلماء، والتجار، والإعلاميين، وباعة الكتب، والكتب التي تباع (٣) عند باب السلام آنذاك .

ووصف بعد ذلك ذهابه إلى الملك عبدالعزيز عند لقائه بكبار الشخصيات في الحج وعبر عن عميق تأثيره بالكلمات الإيمانية والبراعة الخطابية لمدة ساعة كاملة التي تجلت في افتتاح الملك عبدالعزيز ذلك اللقاء، وركزت على ضرورة وحدة المسلمين جميعاً

١ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٤٩-٥٠ .

٢ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٥٢ .

٣ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٥٣-٥٤ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

عريهم وعجمهم وضرورة الالتزام بالعزبة بالله وحده دون الخوف من  
(١) بشرأياً كان .

ثم عقد غلام فصلاً كاملاً في رحلته للحديث عن جغرافية  
مكة المكرمة ومنى ومزدلفة وعرفات، معرفاً بعده من الواقع التي  
تقع في دائرة جغرافية هذه الأماكن أؤمن حولها وبشكل خاص وصف  
بدقة متناهية مسجد الخيف عمرانياً واجتماعياً وتاريخ وفوائد نهر  
(٢) زبيدة كما كان يسميه .

وأسهب في الحديث عن بيته الحرام بجميع أركانه  
ومسمياته مع رسم تقريري بخط يده لحدود الحرم وأخر لتلك الواقع  
ولطرقها وثالث للحرم الشريف وأبوابه وساحاته ومصلياته ورابع  
للطريق من مكة المكرمة إلى عرفات وما عليه من العلامات  
والمسيرات ورسم صورة لكيفية الآذان آنذاك حيث يبدأ الآذان من  
سطح بئر زمزم ويردد ثانية مؤذن الحرم وكانت كل جماعة من  
الجماعات الأربع المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة تقيم الصلاة  
على حدة والآن تقام جماعة واحدة لكل المسلمين فمن بين أفضال  
(٣) السلطان ابن سعود على الحجاز هذا الفضل العظيم .

كان غلام رسول مهر دقيقاً في ملحوظاته ولذا فقد دون في  
رحلته استثناء من مزاحمة بعض نساء الحجاج من جنسيات معينة

١ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٥٦-٥٨ .

٢ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٨٥-٨٧ .

٣ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٦٢-٧١ .

للرجال ومدافعتهن لهم في قوة وشدة تجعل الرجل القوي يفقد توازنه مما يفقد الإحساس الجميل الناتج عن التوجه إلى الله عند الطواف ووصف حالته عندما واجه ثلاثة مجموعات من هؤلاء النساء انتهت إحداها في الدفعة الثالثة وكانت ضخمة قوية كما يصفها الشيخ غلام إلى مسک رقبته ودفعه بقوة فتقذفه بدفعه واحدة إلى مقام إبراهيم يقول غلام لقاريء رحلته : " وأنت تعرف أنني قوي جداً وضخم الجسم لست نحيفاً ضعيفاً منحني القامة لكنني لم أجرب ضعيفي وعدم قدرتي أمام النساء من قبل كما جربتها الآن لقد اعتقدت أنني قادر على حماية النساء فمددت يدي حتى يمضين بسلام فتقدمت إحداها ومرّغت هذا التطبع في التراب وبعد ذلك لم أجرؤ على التفكير في قدرتي على حماية النساء من تلك الجنسية بل كلما لمحتهن من بعيد خفضت رأسي وأنا أفكر في حماية نفسي " (١)

كما تحدث عن الطائفين على الأسرة المحمولة وما يسبونه من تضييق على الطائفين وانتهى إلى ضرورة تقييد هذه العملية بالضرورة القصوى ومنع الساعين في المسعي على البغال والحمير لافي عملهم من تضييق على الحجاج وقت الزحام وما تسببه دوابهم من أذى، وتعجب من رغبة الجاويين في الحج ومن بقائهم أطول مدة ممكنة واستوقفه منظر أطفالهم الذين يطوفون ويظهر على محياتهم بوضوح الشوق والرغبة وأبدى بسبب ذلك رغبته في احتضانهم وتقبياً لهم اعجاباً بهم (٢)

١ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٧٩-٨٠ .

٢ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٨١-٨٢ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ولم تتوقف الرغبات العلمية عند غلام في تقله بين المشاعر عن التحرك والتشوّق فاصطحب رجلاً محباً للكتب هو الأستاذ عبدالحفي (١) عرب واصفاً له بأنه أصبح بسبب ذلك أقرب الناس إليه.

كما كان من رفقاء سفره حافظ محمد صديق من كبار التجار، وذكر أنه "مهتم جداً بالأعمال المتعلقة بتطوير المسلمين (٢) وتعليمهم"

وتلقي رحلة الدكتور محمد حسين هيكل (ت ١٣٧٦هـ)، المسماة (في منزل الوحي) (٣)، التي قام بها سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية مزيداً من الضوء على المعطيات الثقافية في مكة المكرمة في ذلك الزمن؛ حيث صاغها بأسلوب أدبي جميل، وامتلأت بتفاصيل كثيرة.

وظهر الجانب الثقافي واضحاً عندما وصف لقاءه بحاج إرندي أسلم منذ خمس سنين وأقام في سروالك بماليزيا ولم تطلب نفسه كما قال بما دون التعمق في درس حالة المسلمين الاجتماعية والأخلاقية وبالبحث بوصف كونه إرندياً عن الأسباب التي أودت بهم إلى كراهية الخصوص لغيرهم فأخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي ﷺ وبحضاره الأخوية والإباء التي يدعو إليها

١ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٥٨ .

٢ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز - مصدر سابق - ص ٢٠-٢١ .

٣ - د/محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، نشر دار المعارف بمصر، ط١.

ويؤمن بأن الحضارة التي تشرأوروبا اليوم لواءها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء فهذه الحضارة تناهض عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامـة التفكير وسمـو الغـاية ليخضعوا لأهوائـهم وشهواتـهم المادية فتضـعـف نفـوسـهم ويـذـلـوا وأنـالـحج إنـما فـرضـ ليـشـهـدـ المـسـلـمـ اللـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـمـامـ مـلـأـ إـخـوانـهـ الـسـلـمـينـ آـنـهـ تـبـدـ ماـخـتـلـطـ بـحـيـاتـهـ قـبـلـ الـحـجـ مـنـ ذـنـوبـ وـأـوـزـارـ وـالـلـهـ يـغـفـرـ لـهـ مـاـصـدـقـ التـوـبـةـ لـيـوـلـدـ مـيـلـادـ رـوـحـيـاـ جـدـيـداـ يـكـونـ بـعـدـ خـيـراـ مـاـ كـانـ قـبـلـهـ مـنـ عـلـمـ وـبـصـيرـةـ .  
(١)

وقد كان جريئاً في طرح آرائه، يتضح ذلك من إشارته إلى أن خطبة عرفات كانت من الخطب التقليدية التي ألفت الأذان سماع أفالتها ومعانيها التي أصبحت لا تتفق وروح العصر ولا تتفق كذلك مع طبيعة الإسلام الداعية دائماً إلى التجديد في حدود ما أمر الله به  
(٢) ومانهى عنه .

ومن ذلك الاقتراح الذي طرحته المؤلف على الوزير ابن سليمان بأن تكون مكة مقرأ لعصبة للأمم الإسلامية كما أن جنيف مقر لعصبة الأمم المتحدة .  
(٣)

أما رحلة مسعود عالم الندوـيـ، المسـماـةـ (ـشـهـورـ فيـ بلـادـ الـعـربـ)ـ،ـ التـيـ قـامـ بـهـ سـنـةـ ثـمـانـ وـسـتـيـنـ وـثـلـاثـمـائـةـ وـأـلـفـ منـ الـهـجرـةـ  
(٤)

١ - د/ محمد حسين هيكل، في منزل الوحي - مصدر سابق - ص ٩٣-٩٢ .

٢ - د/ محمد حسين هيكل، في منزل الوحي - مصدر سابق - ص ٩٤ .

٣ - د/ محمد حسين هيكل، في منزل الوحي - مصدر سابق - ص ٨٣ .

٤ - مسعود عالم الندوـيـ،ـ شـهـورـ فيـ بلـادـ الـعـربـ،ـ تـرـجمـةـ دـ/ـ سـمـيرـ عـبـدـ الـحـمـيدـ إـبـرـاهـيمـ،ـ نـشـرـ مـكـتبـةـ الـمـلـكـ عبدـالـعزـيزـ الـعـامـةـ بـالـرـيـاضـ عـامـ ١٤١٩ـهـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

النبوية الشريفة، فقد كان الدافع الأول لها هو الاستجابة لنداء الله عز وجل للحج ومع ذلك الهدف الأساس هناك دافع آخرى متعددة لهذه الرحلة عند مؤلفها صرح ببعضها في موضع من رحلته وألح في موضع آخر إلى البعض الآخر، فهي رحلة علمية لطلب العلم، وهي في ذات الوقت رحلة دعوية لتبلیغ دین الله، وهي تعبر عن مودته للعرب وفاء لحملهم الإسلام إلى أصقاع الدنيا وأجناسها، حيث يقول : فأنا عاشق للعرب أحلم بأن أشاهد العظمة العربية أتغنى بالنخوة العربية والحميّة العربية .

إلا أن هذا التعاطف لم يمنعه أن يتحسر في موضع آخر على تدني ثقافتهم، فيقول : فالآمة التي اختارها الله لهداية العالم سيطرت عليها الغفلة حتى إنه صار من المخجل أن نتعاطف مع أهلها ونطلب لهم العزاء، وربما يرجع هذا إلى الثروة التي جرتهم إلى طريق حب الدعة والراحة .

فرحلة الشيخ الندوبي بالنظر إلى هذه الدوافع المتعددة تضمنت معلومات وافرة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية في زمانها .<sup>(١)</sup>

وبهره بشكل خاص منظر الطائفين وهو ما عبر عنه بأسلوب أدبي بديع قائلاً : واتجهنا مباشرة إلى الحجر الأسود كان هناك هجوم للفراشات على الشمع وكان الحرم بأكمله بقعة من نور تحوم حولها فراشات التوحيد ووسط المنزل المعمور بالنور نقطة سوداء تبدو

١ - انظر : مسعود عالم الندوبي، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٣٩ - ٤٠ .

أكثر البقاع ضياء وعلى حافة هذه النقطة كانت الفراشات تدور  
وتدور .

وأشار في معرض وصفه إلى أن المطاف كان سوقاً عامرة  
مزدحمة بالناس وكانت السيارات أيضاً تسير في المطاف ثم تحدث عن  
مشقة البحث عن سكن في مكة المكرمة إضافة إلى كون أرضيتها  
تراوية والطرق ترابية .<sup>(١)</sup>

كما تحدث عن المدرسة الصولية، والمدرسة الفخرية<sup>(٢)</sup> ،  
ودار الحديث بمكة، ومكتبة الحرم والمكاتب التجارية عند باب  
السلام، ولفت انتباذه أن المدرسة الفخرية تعطي المتفوقين جوائز من  
النقود وتتألم من ذلك لأنه يربى العقلية التجارية على حساب الثقافة،  
وتمنى لو كانت الجوائز كتاباً، كما تحدث عن لقاءه بخالد  
الفرج .<sup>(٣)</sup>

وجاء حديثه عن أيام رحلته بحسب تسلسلها الزمني وما عمله في  
كل وقت والمعاناة التي عانها والأشخاص الذين قابلهم، وكان مما  
تحدث عنه الشيخ مسعود الندوبي لقاء الملك عبدالعزيز بكتاب  
الشخصيات من الحجاج الذي كان هو من المدعويين إليه، والحفل  
الخطابي المرافق لهذا اللقاء، كما وصف مؤتمر الحج بوصف أدبي  
رائع مبرزاً دلالاته ومعانيه الإيمانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية

١ - انظر : مسعود عالم الندوبي، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

٢ - انظر : مسعود عالم الندوبي، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٤٠٤ - ٤٠٨ .

٣ - انظر : مسعود عالم الندوبي، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

والسلوكية وما يلمسه المتأمل فيه من ذوبان العصبية والقومية والعرقية.

وفي ملمح ثقافي أشار إلى أنه عندما عاد إلى منى مرة أخرى ليكمل رمي الجمار ساءه ترك سنة الذكر عند رمي الجمار برغم أهميتها وسأله أكثر ما يصاحب الرمي من السب والشتم بأقذع ألفاظ السباب بدعوى تأديب الشيطان بل لفت النظر إلى أن الحجاج والأهالي أصبحوا يسمون الجمار بالشيطان حتى إنك لو سألت إنساناً أين موقف السيارات المتوجهة إلى مكة لقال لك على الفور إنه عند الشيطان الأكبر أي الجمرة الكبرى .<sup>(١)</sup>

وفي شايا هذه الرحلة تبرز محبة الشيخ الندوي للعلماء وطلبة العلم وكتب العلم ولذا فقد حرص على لقاء عدد كبير من العلماء والأعلام المعروفيين ومن هؤلاء الأمير مساعد بن عبد الرحمن والأمير سعد بن عبد الرحمن والشيخ عمر بن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالله ابن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، والشيخ عبدالله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبداللطيف آل الشيخ، والشيخ عبدالله بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالله بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والشيخ محمد بن مانع وغيرهم، فقد كان مسعود الندوي حريصاً على الالتقاء بأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته والاطلاع على كتبهم؛ لأنه يرى كما صرخ في كتابه أن لدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب أثراً واضحاً في ظهور أدب متعدد بلغات العالم المختلفة،

١ - انظر : مسعود عالم الندوى ، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٤٦٠ - ٤٦١.

كما حرص على الالتقاء بالشيخ حمد الجاسر وعبدالقدوس الانصاري، يضاف إلى ذلك أن الشيخ الندوی التقى في رحلته بعدد من العلماء من مختلف أنحاء العالم مثل الشيخ عبدالوهاب عزام والشيخ محمد حامد الفقي والشيخ محمد الأمين الحسيني مفتی فلسطين وسجل مشاهداته وانطباعاته عن لقاءاته بهم بأمانة ظاهرة .

وظهرت ذائقـةـ الشـيخـ النـدوـيـ الأـدـبـيـةـ منـ خـلالـ الـلـقـاءـاتـ الأـدـبـيـةـ  
الـتـيـ كـانـ حـرـيـصـاـ عـلـىـ حـضـورـهـاـ بـلـ وـالـمـشـارـكـةـ فـيـهاـ .<sup>(١)</sup>

ولكون مؤلف الرحلة صاحب تجربة صحافية ثرية في بلده الهند فقد ناقش أحوال الصحافة في العالم العربي وبخاصة في المدن التي زارها كما كتب عن المكتبات الحكومية والمكتبات الخاصة والمدارس وكانت له فلسفة خاصة في اختيار هدايا الحج فهو ينفر من شراء الهدايا المجلوبة من خارج الحرمين ولاسيما من البلاد الأجنبية ويفضل عليها ماء زمزم لأنه أصدق تعبيراً عن مدلول هدية الحج ومضمونها النبيلة ومعه التمر وبعض الكتب .

ومما يلفت النظر في رحلة الشيخ مسعود الندوی أنه كان جريئاً في إبداء آرائه بصدق وأمانة ويمكن الاستشهاد على هذه الميزة بعدد من الشواهد ومن أهمها أن الشيخ الندوی قدم في كثير من أجزاء رحلته مقترحات جريئة للقضاء على بعض المظاهر السيئة والبدع والعادات البعيدة عن روح الدين أو الخلق القويم وكانت له مناظرات

١ - انظر : مسعود عالم الندوی، شهور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٣٤٣ - ٣٤٤ وص ٤٧٧ وص ٣٥١.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ومشادات كلامية في هذا المضمون ومن ذلك أن السبب الأول في إعجابه بالشيخ عبدالعزيز بن باز أنه مع علمه جريء في قول الحق ومن ذلك كذلك صرحته في وصف أوجه القصور التي تعاني منها مدينة الرياض جواباً لسؤال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن حسن ابن رئيس القضاة وخطيب عرفة لما التقى في مكة المكرمة وهو أيضاً في موضع آخر يوصي الحكومة السعودية بوضع حلول إسلامية لمشكلة الفقر عندما رأى مظهراً من مظاهره أشاء رحلته كما برب في الرحلة حرث الشيخ الندوبي على تحري السنة في كل أعماله وإن اضطر إلى تجاهل إشباع عواطفه والاستجابة لجoadبه وهذا جانب آخر من جوانب الجرأة والشجاعة ولذلك فهو يقول كان الناس يتسبّبون بأسنار الكعبة وجدرانها يدعون الله وكان هذا المنظر هو كل ما يمكن أن تشاهده في كل ناحية وفي كل اتجاه ومن الواضح أن مثل هذه الحالة من الجذب والشوق تغلب على الإنسان وتؤثر فيه وتجعله في حالة من الوجد لكن مانقل عن رسول الله ﷺ أنه اتجه بوجهه المبارك ناحية الملزم فقط مابين باب الكعبة والحجر الأسود وأشار بذراعه الكريمة ولهذا أطلق عليه الملزم وذكر ابن تيمية أنه من المستحسن أن تقف قريباً من الملزم، ثم يقول : وقد احتاط كاتب هذه السطور حتى الآن فيما يتعلق بالتمسك بستائر الكعبة أو لمس جدرانها فلدي عواطف شوق وعشق وجذب ولدي أيضاً نهج السنة والعشق الذي يجعل الإنسان يتعدى حدود السنة ليس بعشق إنما هو بداية للبدعة بعد الانتهاء من طواف الوداع شعرت برغبة من داخلي للذهاب ثانية إلى الملزم لأداء هذه السنة أيضاً فهذا أطيب ومن حسن حظي أن المكان كان خالياً

فمكثت فترة أتوجه إلى الله بالدعاء، ثم يقول : عادة ما يعود الناس بظهورهم بعد طواف الوداع حتى لا تكون ظهورهم إلى الكعبة المشرفة ولا أدرى من روح لهذه البدعة .<sup>(١)</sup>

وتجيء رحلة محمد كامل حنة، المسماة ( صور من الحجاز )<sup>(٢)</sup> ، التي قام بها سنة ١٣٧٢ هـ حافلة بالحديث عن ثقافة مكة المكرمة، حيث تكلم فيها عن بعض الأدباء والشعراء كأحمد الغزاوي، وفؤاد شاكر، ومحمد سرور الصبان، وعبد الله أبي الخير، وأحمد عطار، وعبدالقدوس الأنصاري .

وذكر مشاهداته عن الصحف والمجلات الحجازية كالبلاد السعودية، التي يرأس تحريرها عبدالله عريف، وأم القرى التي يرأس تحريرها الطيب الساسي، ومجلة المدينة التي يرأس تحريرها علي وعثمان حافظ، كما تكلم عن محمد نصيف ومكتبه .

كما شمل حديثه ذكر عدد من دور العلم والمدارس، كالصولوية، والفالح، ومعهد العلوم الشرعية، والمعهد العلمي السعودي، ومدرسة تحضير البعثات، وكلية الشريعة واللغة، والكلية العسكرية، ودار التوحيد .

وتحدى عن ضعف تعليم البنات آنذاك، وعن حياة المرأة في مكة في الباذية والحاضرة .

١ - انظر : مسعود عالم الندوى، شهرور في بلاد العرب - مصدر سابق - ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

٢ - محمد كامل حنة، صور من الحجاز، نشر مجلة صرخة العرب بالقاهرة ١٣٧٢ هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

وتتحدث عن مجالس النخب الفكرية، وتحديداً عن أمسيات محمد سرور الصبان، وعن مقابلته لفيليبي بمكة .<sup>(١)</sup>

وأشار الدكتور عبدالهادي التازى إلى جوانب ثقافية مهمة في رحلته المسماة ( التحقيق إلى البيت العتيق )<sup>(٢)</sup> ، التي قام بها عام ثمانية وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة، فتحدث عن لقائه بعدد من كبار الأدباء السعوديين مثل عبدالعزيز الرفاعي وأحمد السباعي وعبدالقدوس الأنصاري حيث كان الدكتور التازى ورفاقه من الوطنين المغاربة يحرصون أشد الحرص على متابعة واستفساخ مجلة المنهل.<sup>(٣)</sup>

كما تحدث في رحلته عن لقائه بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد - وزير المعارف آنذاك - لتسليمها رسالة من وزير التهذيب الوطني المغربي، للتعرف على مظاهر النشاط الثقافي في المملكة العربية السعودية .<sup>(٤)</sup>

ويتعجب مؤلف الرحلة من غرابة أدعية بعض الناس ثم يقول لابد للمتعلة أن تصيح باذانك لتسمع وسائل الناس في خطابهم مع ربهم .<sup>(٥)</sup>

١ - انظر : محمد كامل حنة، صور من الحجاز - مصدر سابق - ص ٥٨-٧٩ .

٢ - د/عبدالهادي التازى، التحقيق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٣ هـ .

٣ - انظر : د/عبدالهادي التازى، التحقيق إلى البيت العتيق - مصدر سابق - ص ٣٠ .

٤ - انظر : د/عبدالهادي التازى، التحقيق إلى البيت العتيق - مصدر سابق - ص ٣٤ .

٥ - انظر : د/عبدالهادي التازى، التحقيق إلى البيت العتيق - مصدر سابق - ص ٨٣ .

ثم طرح على نفسه سؤالاً سجله وظل يردد هو هل الحج  
مؤتمراً؟ وهل ساعدهم الحج في التعرف على شخصيات إسلامية  
عالمية؟

وأجاب بقوله : إننا إذا توكينا الصراحة في القول لأنملك غير  
القول بأن النتيجة كانت سلبية ليس بالنسبة إلى في هذا العام ولكن  
بالنسبة للكل وفي سائر الأعوام، فإذا استثنينا بعض الالتقاءات  
بالصدفة والصادرة التي جمعتنا ببعض الناس نجد أنفسنا كأننا لم  
نخرج من المغرب، فأهل كل قطر يتهم حجاجه ببعضهم حديثهم في  
نفس المستوى والموضوع الذي كانوا عليه في بلادهم، وأنكى من هذا  
وأسوا أن الناس الذين هم من قطر واحد هم أيضاً فرق وجماعات،  
فأهل هذه المدينة لا يتعرفون على أهل المدينة الأخرى، وحجاج تلك  
القرية لا يخالطون حجاج القرية الأخرى، وبعد هذا فإن الطبقات الثرية  
قاماً تستمع إلى الآخرين أو تجتمع بهم، وحتى الوفود الرسمية  
لا يتعارفون فيما بينهم لأحد يعرف مكان الآخر وكأنه لا يهمه أن  
يعرف، وهذا فلكل وجهته، وإنما الناس يؤدون هذا الواجب أي  
الحج وهم في نظري - أي نظر كتاب الرحلة - بعيدون كل البعد عن  
فكرة توحى بالتعارف والتآلف .

فكتاب الرحلة يعبر عن انطباعه حيال عدم الاستفادة المُثلى  
من مؤتمر إسلامي بحجم مؤتمر الحج يمكن أن يُوظَّف لجمع كلمة  
المسلمين وتوطيد أواصر الإخاء والمحبة والثقافة بينهم إذا استثمر  
بشكل صحيح ليحقق الأهداف التربوية والثقافية من تشريعه، بل إنه

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

دعا الحكومة السعودية لاستثمار هذه المناسبة عن طريق كتاب أو صحيفة توزع على الحجاج للتعریف بجهودها ويقول : كان يمكن أن يكون الحج مناسبة للدولة المُضيفة لنشر أكبر عدد ممكّن مما يمس التعریف الدقيق بهذه الأراضي المقدسة ويمس نشاط الحكومة، مثلاً أريد أن أقول : إن على أجهزة الدعاية أن تعرف عدد الحجاج ليصبح أو يمسي عند كل واحد منهم صحيفة أو كتاب، إن الدول تبعث بمنشوراتها إلى البلدان النائية، أفاليس خليقاً أن تستثمر الدولة السعودية هذه المناسبة أحسن استثماراً<sup>(١)</sup>

والحالة الثقافية في مكة المكرمة كانت واضحة أيضاً في رحلة محمد نديم الوفائي، المسماة (حكایة حج)، التي قام بها سنة ١٣٨١هـ، حيث أشار إلى مجلة قريش التي أصدرها أحمد السباعي، ومجلة الرياضة ومجلة الحج، وجريدة البلاد والندوة، وأشار بصفة خاصة إلى حركة الطباعة في مكة المكرمة، وإلى ورش حفر الصور والزونكراف .<sup>(٢)</sup>

وتأتي رحلة عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر من جيبوتي، المسماة (قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشرifين)<sup>(٣)</sup> ، التي قام بها سنة ١٣٨٢هـ مركزة على كثير من الجوانب الثقافية المهمة، حيث

١ - انظر : د/عبدالهادي التازى، التحليق إلى البيت العتيق - مصدر سابق - ص ٩٥-٩٦ .

٢ - انظر : محمد نديم الوفائي، حکایة حج، نشر مكتب حمص للصحافة والنشر، ص ٩٥-٩٧ .

٣ - عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشرifين، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٩٠هـ .

تحدث عن تطور التعليم، ومناهج الدراسة، وصلة البيت بالمدرسة<sup>(١)</sup>، إضافة إلى حديثه عن آثار مكة المكرمة، ومشاعرها، وتوسيعه الحرمين الشريفين<sup>(٢)</sup>، كما تحدث عن مجالس الوعظ بالحرم المكي، ولفت الانتباه إلى تعدد جنسيات الوعاظين<sup>(٣)</sup>.



١ - انظر : عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين - مصدر سابق - ص ٣١-٣٣.

٢ - عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين - مصدر سابق - ص ١١٦-١٦٢.

٣ - عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين - مصدر سابق - ص ٢٧٦.

## المبحث الثاني

### ( نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة )

تميزت كتابات الرحالة الغربيين بأنهم قدموا - غالباً - من أجل الاستكشاف، بغض النظر عن أهدافهم المبيتة، وصحة إسلامهم من عدمها، والاستكشاف عادة يعطي صاحبه قدرة عجيبة في تتبع التفصيات الدقيقة التي لا تلفت نظر الإنسان العادي، ولا تستوقف تفكيره .

كما أن هذه التفصيات تقود - غالباً - إلى حقائق أخرى؛ لأن الاستكشاف - عادة - سلسلة متشابكة الحلقات .

وفي هذا المبحث - كما في المبحث السابق - سأورد نماذج للجوانب الثقافية في تلك الرحلات؛ لأن الاستقصاء متذر نظراً لكثرة عدد الرحلات، وتتجددتها، إذ تضاف بين الفينة والفينية كتابات عن رحلات كانت مطمورة في أرفف المكتبات، ولضخامة المجالات التي تناولتها تلك الكتابات، حيث تتتنوع الثقافات بتتنوع مجالات الحياة ذاتها لتصبح ثقافات اقتصادية وطبية وزراعية وغيرها، وبحسب سلوك الإنسان حيث تظهر ثقافة الاحتطاب وثقافة السقيا، ونحو ذلك، مما يجعل محاولة التقصي شائكة الدروب، وعرة المسالك.

نبأ هذا المبحث بإطلالة ثقافية سريعة على رحلة مبكرة هي

رحلة لودفكو فارتيما، المسماة (رحلات فارتيما)<sup>(١)</sup> ، الذي قام بها سنة ١٥٠٣م، وسمى نفسه الحاج يونس.

القيمة الحقيقة لهذه الرحلة في أنها تؤكد أهمية الرحلات في رسم السياسات الدولية؛ لأن الهدف منها كان خدمة التوسيع البرتغالي، كما ظهر منها عنابة الغربيين بالتعرف على ثقافات الشعوب لضمان نجاح الخطط السياسية الموضوعة، علاوة على أن فارتيما وصف الكعبة وعرفات ومنى ومزدلفة وصفاً له أهميته بالنظر إلى الزمن المبكر للرحلة.<sup>(٢)</sup>

وثمة رحلة مبكرة مشابهة لها في سوء المقصود، إنها رحلة جوزيف بتس، المسماة (رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة)<sup>(٣)</sup> ، التي قام بها سنة ١٦٨٠م، وسمى نفسه الحاج يوسف.

وبرغم ما كتبه هذا الرحالة من عبارات السخرية بمناسك المسلمين كتسميتها الكعبة وثن المسلمين، والتذرubo قائهم التاريخية، كحادثة شق صدر النبي ﷺ<sup>(٤)</sup> ، إلا أن هذه الرحلة بالنظر إلى تاريخها المبكر تعد ذات أهمية في التعرف على بعض الجوانب

١ - لودفكو فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م.

٢ - انظر : لودفكو فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ - مصدر سابق - ص ١٠ - ١٢ .

٣ - جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م .

٤ - انظر : جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة - مصدر سابق - ٤٦ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

الثقافية السائدة آنذاك .

كما أنه تحدث عن العشب والفاكه في مكة المكرمة، وعن بعض عادات وثقافة السكان، ووصف المسجد الحرام (١) ومشتملاته وصفاً دقيقاً.

وثمة جوانب ثقافية أخرى نجدها واضحة في رحلة دمينجو باديا ليبليش، الرحالة الأسباني إلى مكة المكرمة (٢)، التي قام بها عام ١٨٠٧م، وسمى نفسه : علي بك العباس .

فقد تميزت هذه الرحلة بأنها أوضحت بجلاءً أثر ثقافة الرحلات في توجيه السياسات العامة، وفي محاولة تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، والثقافية المهمة، فقد كان هذا الرحالة "يحمل أجهزة علمية دقيقة جداً، منها مقياس للرطوبة الجوية، وألات أخرى فلكية، تمكنه من الحصول على معلومات علمية دقيقة عن مستوى البحر عند جدة وينبع، وتمكنه من تحديد موقع المدن بالنسبة لخط الاستواء، كما تمكنه من الوصف البيولوجي للجبال، ووصف النباتات، والحيوانات، والحشرات" (٣)

كما قدم تقريراً علمياً مفصلاً عن الحج، ووصف المسجد الحرام وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع، كما ألقى ضوءاً على ثقافة أتباع

١ - انظر : جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة - مصدر سابق - ٤٩-٥٠.

٢ - محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، ط١ ، ١٣٩٧ هـ .

٣ - محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية - مصدر سابق - ص ٩-١٠ .

الدعوة السلفية - دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويظهر أن هذا هو أهم عامل في تفزيذ رحلته - .

ووصف دخول جيش الدرعية للحج وعلى رأسهم الإمام سعود وأبو نقطة، ووصف العلم المنقش عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله .<sup>(١)</sup>

لتنقل بعد ذلك إلى رحلة السويسري بوركهارت (ت ١٨١٧م)، المسماة (رحلات في شبه جزيرة العرب)<sup>(٢)</sup> ، التي قام بها سنة ١٨١٤م، وسمى نفسه الحاج إبراهيم عبدالله .

حيث تحدث عن بعض منازل أعيان مكة من المثقفين والعلماء والتجار، وتكلم عن البناء والعمaran فيها ، وعن الماء وثقافة السكان في تخزينه، وحمامات مكة العامة، ومعامل الأواني الفخارية على جبل أبي قبيس، والمصانع والطواحين الضخمة التابعة للحكومة التركية، والمصابغ الوحيدة في الحجاز كله لصبغ الكتان والقطن .<sup>(٣)</sup>  
وتحدث بإسهاب عن حلقات التدريس في الحرث .<sup>(٤)</sup>

وعن هيئة العلماء الذين يحملون العصا ، وعن ثقافة نساء مكة

١ - انظر : محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية - مصدر سابق - ص ١١-١٠.

٢ - جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د / عبدالعزيز الهاشمي، ود / عبدالرحمن الشيخ، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ .

٣ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ١٠١-١٢١.

٤ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ١٤٢ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

وملابسهن وزينتهن، وتربيه أهل مكة لأولادهم، وملاحظة المؤلف أنهم لايفسدونهم بالدلائل كسائر أهالي مدن الشرق .

(١) كما تحدث عن العلماء العاملين في المسجد الحرام .

وتتحدث عن ثقافة الديكور في مكة، وزينة المنازل ببساطتها وفرشها ووسائلها وأرائكها، وتزارو الجيران، وحبهم للمزاح، وعن الثقافة الشعبية من خلال حديثه عن بعض الألعاب المشتهرة في المجتمع (٢) المكي .

وأشار بوركهارت إلى العلم والتعليم ومعوقاته في مكة، والمدارس والأربطة التي تحولت إلى مساكن للحجاج . (٣)

وتتحدث عن حفلات الختان، وعضل البنات - منعهن من الزواج (٤) - وضعف القضاة .

ونجد بعض المعطيات الثقافية عن مكة المكرمة في رحلة ليون روش الفرنسي، المسماة (رحلة ليون روش إلى الحجاز) (٥)، التي قام بها عام ١٨٤١-١٨٤٢م، وسمى نفسه الحاج عمر بن عبدالله .

وعلاوة على وصف الكعبة، والحرم، والمشاعر، فقد تحدث

١ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ١٧٣-١٧٤.

٢ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ١٨٣-١٨٩.

٣ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ١٩٤.

٤ - انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب - مصدر سابق - ص ٢٠٠-٢١٤.

٥ - ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ .

روش عن الدروس في الحرم المكي، وعن المؤدبين الذين يعلمون الصبيان القرآن الكريم، وعن المدرسة التي سماها جامعة السليمانية بمكة المكرمة، وذكر أن علماءها من كبار السن، وأن لهم حرمة كبيرة، وامتياز إلقاء دروس الوعظ على كرسي الحرم .<sup>(١)</sup>

ومن خلال رحلة روش يمكن للقاريء أن يلم بالحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة - كغيرها من الدول الإسلامية في ذلك العصر - ولا سيما غلبة البدع على الحياة العامة، وتأمر أصحاب البدع مع المستعمرين، فقد صرخ روش أن أتباع الطائفة التيجانية، وطوائف صوفية أخرى ساعدوه على تمرير مشروعه للقضاء على الجهاد الإسلامي في الجزائر ضد المستعمرين .<sup>(٢)</sup>

والرحلة التالية هي رحلة ريتشارد بيرتون، المسماة (رحلة بيرتون إلى مصر والججاز)<sup>(٣)</sup> ، التي قام بها عام ١٨٥٣م، وقد أشار خلالها إلى حج السلفيين (الوهابيين) من نجد، المصاحبين لقافلة بغداد، ووصف جمالهم، وطريقة ركوبهم عليها، ونساءهم اللائي قال عنهن إنهن لا ينتمين للجنس الناعم، إلا أن هذه الطائفة أعجبته عندما داهمهم خطر اللصوص فلم ينفذهم سوى هؤلاء الوهابيين، الذين

١ - انظر : ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية - مصدر سابق - ص ٢٧٧.

٢ - انظر : ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية - مصدر سابق - ص ٢٥٢-٢٥٣.

٣ - ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والججاز - الجزء الثالث -، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ذكر أنهم حازوا إعجابه في ثقافتهم القتالية .<sup>(١)</sup>

كما تحدث عن ثقافة السكان في علاقاتهم الاجتماعية  
بحسب الأحياء وما يعتريها من مشكلات، بسبب تلك الثقافة .<sup>(٢)</sup>

ثم تحدث عن مشاعره الروحية عندما دخل الحرم ووقف أمام  
الكعبة لأول مرة في حياته، مطيناً في بيان الأثر الثقافي لهذه المناجاة  
الروحية .<sup>(٣)</sup>

كما وصف المشاعر والكعبة وصفاً دقيقاً، مبيناً تاريخها،  
وجغرافيتها، وما فيها من الآثار .<sup>(٤)</sup>

ووصف قرود الحجاز وصفاً دقيقاً وشاملاً، ولفت الانتباه إلى  
ميلها للنساء، وتحدث عن رقصة الحرب عند الأعراب .<sup>(٥)</sup>

وذكر بيرون شيئاً عن طبائع سكان مكة وثقافتهم  
الاجتماعية والاقتصادية، والجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في  
شخصياتهم .<sup>(٦)</sup>

١ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٢٤ - ٢٦.

٢ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٣١.

٣ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٣٦.

٤ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٥١ - ٨٠.

٥ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٨٣ - ٨٤.

٦ - انظر : ريتشارد بيرون، رحلة بيرون إلى مصر والحجاج - الجزء الثالث -، مصدر سابق، ص ٩٣ - ٩٥.

رحلة بيرتون مليئة بالحديث عن المزارات، والبدع، والخرافات التي لا يصدقها عقل، التي ينقلها عن غيره نقل المسلم بها ، كما أنه عقد فصلاً كاملاً عن الموضع التي يقصدها الزائرون للتبرك في مكة المكرمة ، مما يعطي لحة عن الثقافة المتدينة السائدة في ذلك العصر .<sup>(١)</sup>

كما تحدث بيرتون عن الثقافة اللغوية عند بعض أهل مكة ، مشيراً إلى أعرابي عجوز يتحدث الفارسية ، والهندوسانية بلغة سليمة ، والباشتوي ، والأرمنية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، إضافة إلى لفته الأصل العربية ، وعرف منه أنه يعمل مرشداً للحجاج ، مما يدل على أثر ثقافة مكة المكرمة في سكانها .<sup>(٢)</sup>

وقد حفلت رحلة المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه ، المسماة (صفحات من تاريخ مكة المكرمة)<sup>(٣)</sup> ، التي قام بها سنة ١٨٨٤-١٨٨٥م ، وسمى نفسه عبدالغفار ، بكثير من المعطيات الثقافية؛ لأنها من أغنى الرحلات ، بل هي أغناها على الإطلاق من الناحية الثقافية ؛ لتركيزها على هذا الجانب ، ولطول مدة مكث كاتب

١ - انظر : ريتشارد بيرتون ، رحلة بيرتون إلى مصر والجهاز – الجزء الثالث – ، مصدر سابق ، ص ١٠١ - ١٠٨ .

٢ - انظر : ريتشارد بيرتون ، رحلة بيرتون إلى مصر والجهاز – الجزء الثالث – ، مصدر سابق ، ص ١١١ .

٣ - كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ ود / محمد السرياني ود / معراج مرزا ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، ط ١، ١٤١٩هـ ، وانظر : د / عبد اللطيف بن دهيش ، دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هروغرونيه ، مجلة العرب س ١١ ، ع ١٢٦١ ، جماديان ١٣٩٧هـ ٩٤٢-٩٤٨ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

الرحلة في مكة المكرمة التي تجاوزت ستة أشهر متواصلة .

ولذا يمكن القول إن من الصعوبة بمكان فرز المحطات الثقافية في هذه الرحلة التي تجاوزت سبعمائة صفحة مطبوعة ، غير أنه يمكن إعطاء إلهاطات إلى هذه المحطات .

استعرض هورخرونيه في الجزء الأول من كتابه موقع مكة المكرمة ، والحرم ومشتملاته ، والكعبة ، وتاريخ مكة المكرمة عبر (١) القرون

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد كان أقصى بالجوانب الثقافية ، حيث تحدث عن الحياة اليومية في مكة المكرمة ، مشيراً إلى أجناس السكان وخصائصهم وثقافاتهم (٢) ، والبيت المكي وأثر ثقافة سكانه في تشكيله (٣) .

وتكلم عن المرأة المكية ، ولباسها ، وعن عادات الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، وعن الطب والخرافات في مكة المكرمة ، والقراءة في الكتاتيب (٤) .

١ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ ، ود / محمد السرياني ، ود / معراج مرزا - مصدر سابق - ٦٥/١ - ٢٠٧ .

٢ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ ، ود / محمد السرياني ، ود / معراج مرزا - مصدر سابق - ٢١١/٢ - ٣١٤ .

٣ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ ، ود / محمد السرياني ، ود / معراج مرزا - مصدر سابق - ٣٤٥/٢ - ٣٥٤ .

٤ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ ، ود / محمد السرياني ، ود / معراج مرزا - مصدر سابق - ٤٠٢/٢ - ٤٦٣ .

كما خصص فصلاً كاملاً للحديث عن التعليم في مكة المكرمة، تناول فيه علوم الحديث، والمدارس الفكرية السائدة، والمؤلفات المطبوعة والمتداولة، والمصدر المعيشي لطالب العلم، والمدارس في مكة، وأقدم جامعاتها وهو الحرم الشريف، وتكلم عن المدرسين فيه، وجنسياتهم، وطريقة التدريس، ومكانه وحلقاته، ووقت إلقاء ال دروس والمحاضرات، ومذاهب المدرسين .

وتحدد عن شيخ العلماء في الحرم، وكيفية إصدار إجازة التدريس، وطريقة الامتحان لها، كما تناول حديثه دراسة كبار السن، وإلقاء المحاضرات في الحرم، وتعليم العربية للأعاجم، والكتب المعتمدة في تدريس العلوم المختلفة، والمجاورة في مكة وأثرها الثقافي، وما كان يرمز إليه بالمنافسات والمشاحنات بين الاتجاهات الفكرية المختلفة في مكة، وهو ما يعرف بثقافة الردود بين ذوي الآراء المختلفة، إلى غير ذلك مما يتعلق بالجوانب الثقافية .<sup>(١)</sup>

بل إن التركيز الثقافي في كتابات هورخرونيه ظهر حتى عند تناوله الحديث عن عناصر السكان في مكة المكرمة، فأبرز المعطيات الثقافية المؤثرة في التركيبة السكانية، والخصائص الثقافية لكل عنصر سكاني منها، كما ألمح إلى الأثر المتعدي للحج<sup>(٢)</sup>. ثقافة مكة في البلدان الإسلامية .

١ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ، ود / محمد السرياني، ود / معراج مرزا – مصدر سابق – ٤٦٧/٢ – ٥٤٠

٢ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ، ود / محمد السرياني، ود / معراج مرزا – مصدر سابق – ٥٤١/٢ – ٦٣٠

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

ولم يقتصر ما كتبه هورخرونيه عن ثقافة مكة المكرمة على التسجيل فحسب، بل إنه كان يدون ملحوظاته، واستنتاجاته وتعليقاته الشخصية، المتعلقة بهذا الشأن، وهو ما نستشفه من قوله : " والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة، فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والأراء " <sup>(١)</sup>

وكوصله بعض المؤلفات بقوله : " ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لا يختلف عن غيره إلا في بعض التفصيات، وفيه بعض الإضافات البسيطة، الأمر الذي لا يثير كبير اهتمام بها " <sup>(٢)</sup>

وتجيء رحلة مهمة للرحالة الفرنسي جيل كورتلمون <sup>(٣)</sup> (ت ١٩٣١ م)، الذي قام بها ليؤدي العمرة عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، (١٨٩٤ م)، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبدالله بن البشير، وصاحب الرحلة فنان تشكيلي أفرغ كثيراً من مشاعره وعواطفه وانفعالاته وقدراته التشكيلية في ألوان ريشته لتشكيل صورة حية للواقع، لذا فإن هذه الرحلة تميزت بامتزاج الريشة بالعدسة أو التسابق بينهما في رسم الظلال والألوان والحركات والسكنات إلى درجة يصعب التفريق بينهما أحياناً .

١ - كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/ محمد السرياني، ود/ معراج مرزا - مصدر سابق - ٥١٠/٢.

٢ - كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/ محمد السرياني، ود/ معراج مرزا - مصدر سابق - ٥١٠/٢.

٣ - جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش، نشر مؤسسة التراث بالرياض، ط ١٤٢٣ هـ .

كما أن هذه الرحلة تمت بعد قليل من إعلان كورتلمون إسلامه وتغيير اسمه إلى عبدالله بن البشير وفي حقبة تاريخية مهمة مما يعطي لها أهمية لاتخفي نظراً لأهمية المعلومات التاريخية التي يقدمها المؤلف توثيقاً وتحليلاً لتلك الحقبة الزمنية .

ويرجع جزء من أهمية رحلة كورتلمون إلى كونه من الأوروبيين القلائل الذين دخلوا في وقت مبكر حرمي مكة المكرمة والمدينة، فضلاً عن استخدامه الكاميرا لالتقاط الصور الفوتوغرافية في ذلك الوقت الذي يواجه فيه حامل كاميرا التصوير بالعقوبة حتى خارج الحرمين الشريفين، كما أنه سعى إلى الارتفاع بالصور المكتوبة إلى مستوى الصور التي تلتقطها الكاميرا مركزاً في الجزئيات والتفاصيل الصغيرة مازجاً الواقع بالخيال.

وتحدث عن أهمية مكة بصفتها مركزاً للثقافة الإسلامية حيث يتم توزيع الإنتاج الثقافي من خلاله، مشيراً إلى المطبعة الوطنية بجوار الصفا، ولاقت النظر إلى أن مكة المكرمة التي يقصدها جميع المسلمين من كل حدب وصوب أصبحت مركز إشعاع ثقافي وعلمي، وأكَّد ذلك بحرص الهند سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم؛ لتنقل من مكة المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي .<sup>(٢)</sup>

كما شمل حديثه الإشارة لثقافة الري عند حديثه عن مصادر

١ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٣٦.

٢ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٨٧.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

مياه مكة المكرمة وطرق السقيا فيها، حيث أشار إلى أن المياه العذبة تُجلب من جبال الطائف عبر قناة مبنية وقوية جداً وتتسقى مكة من القناة نفسها عبر فتحات من مسافة إلى أخرى حيث يرمي الرجال الدلاء المصنوعة من جلد الماعز ويملاون بها القرب الكبيرة التي يحملونها إلى البيوت على ظهورهم أو على ظهور الحمير ليفرغوها في أوانٍ فخارية كبيرة .<sup>(١)</sup>

وتحدث عن سوق البادية الذي يعقد كل صباح مشيراً إلى طبيعة رواد هذا السوق ونوع ألبستهم ونحو ذلك من المظاهر العامة للأهالي هناك والبضاعة التي تعرض فيه ولاسيما الأعمال والمشغولات اليدوية التي تصنعها النساء مثل حُرُوج الفرو المصنوعة من خيوط جلدية متعددة الألوان منسوجة أو معقودة بعنایة فائقة وخراطيش من الجلد المصبوغ باللون الأسود مزينة بمسامير صغيرة من الفضة وخيوط من الجلد المفتول وأباريق القهوة ذات المصب الطويل – يقصد دلال القهوة العربية –<sup>(٢)</sup>

كما أشار إلى ثقافة الاحتطاب عند أهالي مكة متحدثاً عن اهتمام الأهالي الرائد بالاحتطاب وذلك بقطع شجر العرعر حيث تربط الجذوع في حُرَم صغيره ثم تجمع الفروع في حزم أخرى وكذلك يفعلون بشجر الأشجار مرجحاً ذلك إلى ندرة المحروقات وغلاء ثمنها، كما أشار إلى طريقة الأهالي آنذاك في جمع علف المواشي عن طريق

١ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٩٦.

٢ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٩٧.

البحث عن العشب ثم جمعه قشة قشة وتجفيفه في الظل وفتله على شكل حبال كأنها خصلات من الشعر النباتي ويحفظ مشدوداً (١) وجففاً .

ولم يتجاهل دكان الهندي المقابل لนาفذة مسكنه حيث أبدع في وصف جلسته وعمله في نحت بعض المجسمات الجمالية المستوحاة من بيئه مكة المكرمة ومشاعر الحج وتلوينها ليبعها بعد ذلك مع أدوات القرطاسية . (٢)

وحاول تقديم حلول واقعية للتغلب على كثير من مشكلات الطرق والصحة كدعوه إلى تفويض مقترح السكة الحديد بين مكة المكرمة وجدة وهو مقترح لم يُلغ فائدته اختراع السيارات، ومثل الحلول الصحية لتنظيم مجذرة الهدي في منى، وهو مقترح تم تفويضه بعد ذلك في العهد السعودي متمثلاً في مجذرة منى النموذجية بالعيصم . (٣)

ونجد معطيات ثقافية أخرى في الرحلة السرية للضابط الروسي يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين ) إلى مكة، المسماة ( الحج قبل مائة سنة ) (٤)، التي قام بها عام ١٨٩٨-١٨٩٩ م .

١ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٩٨-٩٩ .

٢ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٨٨ .

٣ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ١٥٤ .

٤ - يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة، نشر دا التقرير بين المذاهب بلبنان ط ٢ عام ١٤١٤ هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

فقد تحدث عن عملية بيع الرقيق المجلوب من الحبشة، وعن  
فئات السكان .<sup>(١)</sup>

وتكلم عن الحيوانات والنباتات والزواحف في الحجاز عموماً،  
وفي مكة خصوصاً، وأسباب ندرة النباتات وحزن الهشيم، والثقافة  
العامة بين السكان في كيفية التعامل معه .<sup>(٢)</sup>

وتناول الصفات الشخصية لأعراب مكة، ونسائهم، وثقافتهم  
الدينية المغرقة في الأساطير، وثقافتهم الاجتماعية المتمثلة في عاداتهم،  
وثقافتهم الصحية عن التداوي والعلاج .<sup>(٣)</sup>

كما تحدث عن الثقافة المعمارية من خلال الهندسة المعمارية  
لبيوت مكة وجدرانها ومشرباتها وغيرها، وألبسة السكان،  
وطبقاتهم، وتكلم عن الحياة الفكرية لأهل مكة، والجرائد التي  
تندد إليهم، والمطبوعات الهندية التي يقدم بها الحجاج، وثقافة  
الاتصالات متمثلة في البريد والتلغراف، كما أشار إلى وظيفة القضاة  
والمفتيين والمحاسبين .<sup>(٤)</sup>

وركز بشكل خاص على المدارس الدينية في مكة والمدينة،  
وطرق التدريس فيها، وأنواع العلوم المتداولة .<sup>(٥)</sup>

١ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق - ص ٧٧.

٢ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق ص ١٠٦-١٠٧.

٣ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق ص ١١٢.

٤ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق ص ١٤١-١٦٠.

٥ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين )، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق ص ١٧٠-١٧٣.

ولاتغيب عن الذهن رحلة عبدالرشيد إبراهيم، المولود في سيبيريا، الذي أصبح من الدعاة والرجال في اليابان، المسماة ( عالم الإسلام )<sup>(١)</sup> ، التي قام بها عام ١٣٢٧هـ ( ١٩٠١م - ١٩٠٠م ) فقد تحدث عن علماء مكة، وتنوع الثقافة اللغوية عندهم،<sup>(٢)</sup> وسميات كتبهم .

كما تحدث عن كثرة مدارس مكة في زمن الرحلة - وقت نفوذ جمعية الاتحاد والترقي -، إلا أنه أردف قائلاً : لكن لم يكن هناك في مكة مفتٍ ولا مدرس ولا عالم يشار إليه بالبنان، بل أكثر من ذلك وصفها بأنها محرومة من العلم ومن الفضائل الإنسانية .<sup>(٣)</sup>

وتحدث أيضاً عن مؤتمر إسلامي مصغر للمطالبة بوحدة إسلامية منطلقها مكة المكرمة، وأشار إلى أهم المتحدثين فيه<sup>(٤)</sup> .

وهناك الرحلة اليابانية لتاكويشي سوزوكى - محمد صالح ، المسماة ( ياباني في مكة )<sup>(٥)</sup> ، التي قام بها عام ١٣٥٦هـ ( ١٩٣٨م )،

١ - محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم، عالم الكتب، المجلد العاشر، ع٢، شوال ١٤٠٩هـ .

٢ - انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم - مصدر سابق - ص ٢٥٩ .

٣ - انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم - مصدر سابق - ص ٢٦٠ .

٤ - انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم - مصدر سابق - ص ٢٦١ .

٥ - تاكويشي سوزوكى، ياباني في مكة، ترجمة د / سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى، نشر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ١٤١٩هـ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

تحدث فيها عن الحرم المكي والكعبة والحجر الأسود<sup>(١)</sup>، وتحدث عن الثقافة المعمارية من خلال تصميم بيوت مكة<sup>(٢)</sup>.

كما أشار إلى الثقافة المكية في ترطيب الجو عن طريق مجاري المياه المتداولة من السطوح لتتحول إلى رذاذ أو بخار<sup>(٣)</sup>، وتحدث عن تصميم غرف الحرمين ولباسهن، وعادات الزواج.<sup>(٤)</sup>



١ - انظر : تاكويشي سوزوكي، ياباني في مكة - مصدر سابق - ص ١٣٥-١٣١ .

٢ - انظر : تاكويشي سوزوكي، ياباني في مكة - مصدر سابق - ص ١٤٥ .

٣ - انظر : تاكويشي سوزوكي، ياباني في مكة - مصدر سابق - ص ١٥٠-١٥١ .

٤ - انظر : تاكويشي سوزوكي، ياباني في مكة - مصدر سابق - ص ١٦٢-١٦٨ .

### المبحث الثالث

#### ( أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدى لثقافة مكة المكرمة )

من المؤكد أن أدب الرحلات الحجازية كان له تأثير ثقافي قوي، من حيث الجانب الوصفي للحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة عبر العصور المختلفة، ومن حيث الاستفادة منه؛ إلا أنه من المهم التبيه إلى الأثر المتعدى لثقافة مكة المكرمة، بحيث امتدت آثاره إلى مختلف الأقطار الإسلامية، ليسمهم في تشكيل ذاكرتها الثقافية .

باديء ذي بدء لابد من الوعي بأن هذا الأثر الثقافي المتعدى لمكة المكرمة بدأ مبكراً، وأنه مضمون الاستمرار من الله عز وجل إلى قيام الساعة؛ لأن الإسلام انطلق من مكة المكرمة نحو العالم أجمع؛ مصداقاً لقول المولى سبحانه وتعالى : ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين )<sup>(١)</sup> ، ونظراً لأن رسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عالمية وخاتمة للرسالات، فإن أثراها مستمر، وبالتالي فإن استمرار أثر مكة الثقافية مستمر باستمرارها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن مما لا يصح الاستنكار عنده أن هذا الأثر المتعدى يتعلق بواجب ديني يقوم به علماء مكة، ومن رفع ثقافة مكة المكرمة، ولا بد أن يتلقاه الآخرون ممن اطمأنوا نفوسهم في رحاب الإيمان بالقبول؛ لأن إرث إسلامي يتجدد مع العصور، فقد كان من أهم

1 - سورة الأنبياء، الآية ١٠٧ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

خصائص الدين الإسلامي أنه دين الدعوة، وأن أمة الإسلام هي أمة الدعوة، كما جاء في محكم التزيل، في قوله الكريم : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (١) وأولئك هم المفلحون )

ومكة المكرمة تحديداً لها من هذه الخصيصة أكبر الأثر بحكم أنها قبلة المسلمين، ومهوى أفؤدتهم، وموطن كثيرون من عباداتهم، ومقدساتهم، ومنذ العهد النبوى الشريف، وفور أن فرض الحج إلى بيت الله الحرام، تعلم المسلمون عدداً من الدروس المهمة، أهمها على الإطلاق أن يكون الحج موطنًا للقاء بين العالم والمتعلم، بين الفقيه والمتفقه .

وفي جامعة حجة الوداع كان المعلم الأول ﷺ مركز إشعاع علمي للمعرفة والفقه في الدين، ومن على ثرى مكة المكرمة في تلك المناسبة العظيمة - حجة الوداع - كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على تبليغ العلم والفقه لكل المسلمين، لذا أمر أن يحمل العلماء من بعده أمانة تبليغهما، فقد روى زيد بن ثابت رض عن النبي ﷺ أنه قال : ( نظر الله عبداً سمع منا حديثاً فحفظه، حتى يبلغه غيره ؛ فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ) (٢)

١ - سورة آل عمران، الآية ١٠٤ .

٢ - الإمام أحمد، المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفيقيه، الحديث رقم ٢١٥٩٠، نشر مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٣٦٧/٣٥، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٧٦٥، الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، نشر المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٨هـ، ١١٤٥/٢.

كما أمر المصطفى ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن يبلغ بصوته -  
وكان جهوري الصوت - من لا يصل إليه صوته ﷺ من المسلمين في  
صعيد عرفات ؛ دلالة على أهمية تبليغ العلم والفقه، وهكذا أصبح  
مأولاً أن يتعدى أثر مكة الثقافية إلى أصقاع الأرض قاطبة .

وفي هذا العصر، الذي تطورت فيه وسائل الإعلام والاتصال  
لا يجد عاقل مالهذه الوسائل من أثر في نشر ثقافة مكة المكرمة،  
وكم نقلت لنا الأخبار عن إسلام عدد من الناس تأثراً بمشهد متلقي  
عن مناسك الحج انتقل عبر الوسائل الإعلامية من مكة المكرمة إلى  
أطراف الأرض البعيدة .

من المؤكد أن مكة المكرمة بالنظر إلى خصائصها الدينية  
ستظل - دوماً - ساحة تلاقي فكري لا بد أن يتعدى أثره حيث " يقدم  
الوافدون إلى مكة المكرمة، فيهدون إليها شذرات من ثقافاتهم  
وعلومهم، وتهديهم مكة - بدورها - علمًا واسعًا، و المعارف نافعة،  
ويجدها الناس قد هيأت لهم جماعات من العلماء، وجحافل من  
المثقفين، يستجيبون لطلباتهم " (١)

وهذا الأثر لم يكن غائباً عن أذهان ذوي الاهتمام بتعقب  
التداعيات الثقافية لمكة المكرمة، ولذا كان في دائرة تفكير  
ودراسة الرحالة العرب والأجانب أيضاً، الذين نبهوا إليه، وفصلوا  
القول في نتائجه .

١ - محمد الحبيب الهيلة، أثر الحج في الحياة الثقافية والاجتماعية عبر العصور، مكة المكرمة عاصمة  
الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات، الندوة العلمية الكبرى، وزارة الحج ١٤٢٣هـ، ص ٤٦٥.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

نجد مثلاً أن "الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية، وكانت له عنية بذكر الأشعار، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون الفكر، سواءً كانت مرتبطة بالإطار الفقهي، أو بالإطار التاريخي، أو بالإطار الاجتماعي، ولذا لانظن أن المهتمين بتاريخ المغرب يمكنهم الاستغناء عن المعلومات المقتبسة من هاته الرحلة - رحلة الوزير الإسحاقى الشرقي الحجازية -، فهي ستمكن الكثير من الباحثين من الاطلاع على بعض أحوال المغرب، وعلى بعض اهتماماته التاريخية العامة، وعلى بعض شؤونه الفكرية والأدبية في القرن الثاني عشر المجري" (١)

إن رحلة الإسحاقى الحجازية، التي تعد معبرة عن ثقافة مكة أصبحت مرجعاً لتاريخ المغرب، بحيث لا يُستغني الباحثون في تاريخ المغرب في عصرها عن الرجوع إليها .

ومن الرحالة الغربيين تناول هورخرونيه الهولندي أثر الحج، وثقافة مكة الدينية في المسلمين في بلاد الجاوي (٢)

كما أكد كورتلمون الفرنسي الأثر المتعدي لثقافة مكة بإشارته إلى حرص الهند سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم؛ لتنتقل من مكة

١ - حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقى إلى الحجاز، - مصدر سابق -، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص ٦٦٤.

٢ - انظر : كريستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د / علي عودة الشيوخ، ود / محمد السرياني، ود / معراج مرزا - مصدر سابق - ٥٧٤ / ٢ و ٥٨١ .

المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي .<sup>(١)</sup>

وتوقف يفيم ريزفان الروسي طويلاً عند تأثير الحج في مسلمي روسيا ، وربط ذلك بثقافة الحاج واهتماماته وتفكيره ، كما نبه إلى تأثير الحجاج الروس في سكان الحجاز .<sup>(٢)</sup>

وهذا الأثر الثقافي المتعدي ملحوظ بشكل جلي في رحلات علماء الشناقطة ، حيث تصطبغ به هذه الرحلات " المنشورة منها والممنظومة ، المدونة وغير المدونة ، ويظهر فيما تتضمنه من إفادات وإنشادات ، وما تعرضه من أخبار وأشعار ، وما تحتوي عليه من معلومات علمية وأدبية ، فهي تضم بين شايها الكثير من الأشعار ، والفتاوی ، والمناظرات ، اللغوية ، والفقھیة ، والمساجلات والمطارحات ، التي شهدتها رحاب مكة خلال موسم الحج وبعده ، بين الشناقطة وغيرهم من علماء العالم الإسلامي ، مما جعلها أشبه بالموسوعات العلمية "<sup>(٣)</sup>

لقد ذكر صادق ( خضر ) العبادي ثلاثة عشرة ومائة مادة مخطوطة عن الرحلات الحجازية ، والرسائل العلمية الفارسية المخطوطة والمطبوعة حول جغرافية الحرمين الشريفين ، وما حقق منها ، وماطبع حديثاً<sup>(٤)</sup>

١ - انظر : جيل جرفیه ڪورتمون ، رحلتی إلى مکة ، ترجمة د / محمد الحناش - مصدر سابق - ص ٨٧.

٢ - انظر : يفيم ريزفان ( عبدالعزيز دولتشين ) ، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق - ص ٢٢٩-٢٢٥ .

٣ - محمد الطريف ، مكة المكرمة في رحلات علماء شنقيط ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ١٦٣ .

٤ - صادق ( خضر ) العبادي ، أدب الرحلات الفارسية إلى مكة المكرمة ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ١٧٨-١٨٨ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

فهذا العدد الضخم من الإنتاج الفارسي عن مكة المكرمة يبيّن – دون أدنى شك – الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة في البلاد الفارسية، بل وما حولها كباكستان والهند وتركيا، بالنظر إلى ما هو موجود في مكتبات هذه الدول من الرحلات الحجازية الفارسية وغيرها.

وجانب جدير بالتسجيل هو أثر المجاوريين الذين رحلوا للحج، وأقاموا في مكة المكرمة مدة من الزمن تشربوا خلالها ثقافتها، ثم عادوا لبلادهم، " فمنهم من تصدى للتأليف فزود المكتبة العربية بنتاج ثقافته، التي تلقى بعضها أو معظمها أشاء مجاورته للكعبة، ومن هؤلاء خلف بن قاسم بن سهل الذي ألف كتاباً حساناً في الزهد، وعبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الذي كانت له تأليف حسنة أخذها عنه كثير من العلماء ..."<sup>(١)</sup>

" بل إن بعض المجاوريين كان له أثر أكبر من ذلك، وهو الإسهام في تحويل بلد بكماله من مذهب إلى مذهب، فقد ذكر أن زياد بن عبد الرحمن بن زياد، المعروف بشبطون فقيه الأندلس على مذهب الإمام مالك كان أول من أدخل مذهبة إلى الأندلس وكان الناس قبله يتلقون على مذهب الأوزاعي "<sup>(٢)</sup>

١ - العربي سالم الشريف، مكة والمجاوريون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٢٤٦ .

٢ - العربي سالم الشريف، مكة والمجاوريون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٢٤٧ .

ووقف الكتب صورة أخرى من صور الأثر المتعدي لذاكرة مكة الثقافية، حيث "لم يكتف بعض هؤلاء المجاوريين من أهل الأندلس بجمع الكتب ليستفيد منها هو ومن حوله من طلابه ولكنّه وسّع دائرة الاستفادة، فوقف كتبه وتاليفه على كل المشتغلين بالطلب والتحصيل، مثلما صنع أبو العباس أحمد الميورقي (ت ٦٧٨ هـ) في وج بالطائف.

وكان لاهتمام المجاوريين الأندلسيين بالتقيد والتدوين والنسخ والتأليف أثره في ذيوع ما صنفوا من كتب، مثل كتاب التفسير لابن أبي الفضل المرسي، وتجريد الصحاح لرزين السرقسطي، ومعجم التفسير لابن مسدي الغرناطي، وغيره<sup>(١)</sup>

وأثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية مما لا يحتاج إلى استشهاد لوضوحه عبر العصور التاريخية المختلفة ؛ فقد "كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومت米زة، فقد كانت قلوب أهل الهند حكاماً ومحكمون تتوّق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها"<sup>(٢)</sup>

ولضرب مثال من الواقع على الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، هذا هو صبي مكة أبو الكلام آزاد، الذي نشأ في مكة

١ - حسن الوراكي، المجاوريون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٣٤٤.

٢ - د/سمير عبدالحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

المكرمة، ورضع ثقافتها " نال استحسان الجميع، وتعجب مولانا شibli النعماني، وأديب الأردية حالي، حين التقى بهذا الفتى، الذي هو مدير تحرير لسان الصدق .

(١) لقد شكلت نشأته في مكة المكرمة شخصيته العظيمة "

وفي جانب ثقافية هام يلفت النظر في الأثر المتعدى لثقافة مكة المكرمة، تلك الحركات الإصلاحية التي شهدتها بقاع عديدة في أصقاع العمورة، وكان زعماؤها نتاج ثقافة مكة المكرمة، حين تأثروا بها .

مثلاً شهدت شبه القارة الهندية عدداً من حركات الإصلاح الدينية كحركة تيتو مير، والحركة الفرائضية، وجماعة المجاهدين " (٢)

ومن الجوانب المهمة لأثر ثقافة مكة المكرمة المتعدى ما انعكس في إنتاج الشعراء والأدباء، حينما إلى مكة المكرمة وما فيها من مقدسات، وتعبيرأ عن التجليات الروحية عند الرحالة إليها، ومن قرأ الرحلات الحجازية التي ألفها عدد من علماء شنقيط، وتلك التي ألفها بعض علماء الهند وباكستان فسيجد هذا الأثر واضحاً جلياً، بل إن هناك رحلات حجازية نظمت نظماً شعرياً، كالرحالة

١ - د/سمير عبد الحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٤١٤.

٢ - انظر : د/سمير عبد الحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٤١٩.

الموهوبة البخارية في الرحلة الميمونة الحجازية، وأصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، محمد المختار السنوسي (١) وغيرها .

و جانب مهم يتعلّق بالأثر المتعدّي لثقافة مكة المكرمة هو الفوائد التربوية المستقة من ارتباط المسلم بمشاعر الحج المحسوسة؛ لأن في الحج شعائر متراصدة ومتعاقبة، لكل شعيرة هدف نبيل، ومغزى تربوي هادف، يقول الله سبحانه وتعالى : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ) (٢)

فهل لهذه الشعائر معانٍ تربوية ؟

لإجابة على هذا السؤال لابد من العلم بأن من دلائل عظمة الإسلام وشواهد إعجازه؛ أنه يحتفي بالفطرة البشرية، ويراعي متطلباتها المسوية في تشريعاته، ويحرص على التوازن بين الجوانب الروحية والمادية في الحياة، فالإنسان ليس عقلاً مجرداً، ولا كائناً جامداً، ولكنه ذو طبيعة مزدوجة قوامها العقل والقلب .

وفطرة الإنسان التي يلمسها ويشاهدها كل أحد تقول - لو كان لها أن تتطق - : إن هذا الإنسان يبحث عن الأشياء التي يراها بعينه ويحن إليها قلبه؛ ليbethها أشواقه، ويفضي إليها بحنينه، ويشبع بها رغباته الملحة؛ فكانت شعائر الحج تلبية لدعوى الفطرة

١ - انظر : د/محمد بن حسن بن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، نشر دار الأندرس الخضراء، ط١، ١٤٢١-١٣١ هـ .

٢ - سورة الحج، الآية ٣٢ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

المستقيمة واستجابة لطلعاتها الشغوفة .

( فإذا رأى الحاج هذه الأشياء المحسوسة الظاهرة، المنسوبة إلى الله تعالى ( شعائر الله ) ذكر الله تعالى، وتأمل كيف تجلت عظمته سبحانه في هذه الشعائر، ثم انتقل بتصوراته في مرحلة لاحقة إلى ما يرتبط بها من وقائع وأحوال تذكره بإخلاص التوحيد كما هي دعوة الخليل صلى الله عليه وسلم، وتذكره باليوم الآخر والطريق إليه كما يرمز إلى ذلك اللباس الموحد للحجاج .

ولأبي حامد الغزالى - رحمه الله - استظهار لطيف ودقيق حول هذا المعنى التربوي لشعائر الحج، فيقول رحمه الله : فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يسوق الإنسان إلى أسباب اللقاء لامحالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشتاق إليه مجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزييل .

ثم يقول : واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقسم به ظهره ؛ إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيمًا له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

ويشير الشيخ أبو الحسن الندوى إلى أن الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم، وحاجة من حاجاته، وأنه يبحث له عما يقضي به حاجاته، ويروي غلته، فكان البيت العتيق وماحوله من شعائر الله، والحج وما فيه من مناسك خير ما يحقق رغبته، ويسلى حنانه

وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : ( إِذْ بُوأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً وَطَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرَّكْعَ السَّجْدَ وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ لِيَشْهُدُوا مَنَافِعَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارِزِّهِمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفْثِيمَهُمْ وَلَيَوْفُوا نَذْوَرَهُمْ وَلَيَطْوُفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ )<sup>(1)</sup>

ومما شار إليه الشيخ الندوبي ظاهر للعيان لأن كل حركة لابد لها من غذاء وزاد ، وحركة الشوق والحنين تحتاج إلى غذاء للقلب وزاد للعاطفة وسقيا للوجدان ، بما يحقق الشبع والإرواء بحسب قوة الحركة وضعفها ، ويؤكد الشيخ أحمد الدهلوi هذا المعنى بقوله : وربما يشاق الإنسان إلى ربه أشد شوق ، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجد إلا الحج<sup>(2)</sup>

ولأن الحج ماضٍ إلى يوم القيمة فإن الارتباط بين المشاعر المعنوية ، الساكنة في وجдан المسلم ، وبين المشاعر المادية ، المتمثلة في مشاعر الحج بمكة المكرمة سيوظف الأثر المتعمدي لثقافة مكة المكرمة ، عبر العصور المختلفة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وجانب ثقافي مهم نلمح من خلاله تعدد أثر ثقافة مكة المكرمة ، هو أهمية التواصي في بناء العلاقات الإنسانية ، ومن المتأكد أن مكة المكرمة تشغل حيزاً كبيراً من الخارطة الذهنية

١ - سورة الحج ، الآيات ٢٦-٢٩ .

٢ - إبراهيم السماري ، الفوائد التربوية في الحج ، ط١ ، الرياض ١٤٢٣ هـ ص ٤٣-٤٥ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

لكل مسلم، ولذا فإن ثقافتها مؤهلة للانتقال عن طريق التواصي .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ( وهذا الموجود في المنكر نظيره في المعروف، وأبلغ منه، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حَبَّاً لِّلَّهِ﴾<sup>(١)</sup> ، فإن داعي الخير أقوى، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل وأداء الأمانة، فإذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داع آخر، لاسيما إذا كان نظيره، ولاسيما مع المنافسة، وهذا محمود حسن، فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين، ويغضه إن لم يفعل ذلك صار له داع ثالث، فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك وعادوه وعاقبوه على تركه صار له داع رابع، ولهذا يؤمر المسلمين أن يقابلوا السيئات بضدتها من الحسنات كما يقابل الطبيب المرض بضده )<sup>(٢)</sup>

والتواصي ذو أثر بلين في ثقافة الإنسان لأنه يتغلغل في فكره، وينعكس في سلوكه، حتى دون أن يشعر بتأثيره .

" قد يكون الفعل غير مقصود التأثير في الآخرين من الفاعل، ولكن الآخرين ينتفعون به عرضاً، فيكتسب تأثير التواصي وصفته حينئذ، ولهذا كانت القدوة - حسنة وسيئة - باباً من أبواب التواصي بهذا المعنى "<sup>(٣)</sup>

١ - سورة البقرة، الآية ١٦٥ .

٢ - ابن تيمية، رسالة الحسبة، تحقيق محمد زهري النجار، نشر المؤسسة السعیدية بالرياض ، ط١، ١٩٨٠ م، ص ١٥٦-١٥٧ .

٣ - إبراهيم السماري، الإبداء في الدعوة الإسلامية، ط١، الرياض ١٤٢٤ هـ ص ١٢١ .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ كَانَ يَرْجُوُ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَذِكْرُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>(١)</sup> ، وهكذا الشأن في ورثته من العلماء، ولاسيما في البلد الحرام من علماء البيت الحرام، الذين يصيرون ويمسون قدوة للمسلمين، وبذلك يتعدى أثر ثقافة مكة من هذا الجانب.

ولنأخذ مثلاً مضروباً يؤكّد هذه الحقيقة، بلسان شاهد من أهلها، لنجد أن "الإنسان العثماني شغوف بسماع كل ما يتعلّق ببيت الله الحرام، والمشاعر المقدسة، بل إن مخيّاته تصور له تلك البقاع المباركة، ويسبح في جو روحاني فذ"<sup>(٢)</sup>

وهو أثر مستمر لا يقطعه سوى الموت " وهكذا كانت مكة المكرمة رمزاً مميزةً في مخيلة الإنسان العثماني، كان حاضراً في ذهنه، وينشده بلسانه، في أشعاره وقصائده، ويزين أطراف بيته بصورة وأثاره، كما كان البيت العتيق ماثلاً أمام عينيه مع تعاقب الليل والنهار، بل لشدة ولعه به سمي ابنه بما يذكره بالحج على الدوام - الحاج -، فأصبح هذا الابن حاجاً، حتى لو لم يرد الحجاز أبداً"<sup>(٣)</sup>

١ - سورة الأحزاب، الآية ٢١ .

٢ - د/سهيل صابان، رمزية الحج ومكانة مكة المكرمة في مخيلة الحجاج العثمانيين، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٥٥٠ .

٣ - د/سهيل صابان، رمزية الحج ومكانة مكة المكرمة في مخيلة الحجاج العثمانيين، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات - مصدر سابق - ص ٥٥٤ .

## مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام

### الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين؛ بنعمته تتم الصالحات، والصلة  
والسلام على أشرف الخلق، برسالته تمت الرسالات، وبعد :

فقد عشت في رحاب ثقافة مكة المكرمة مدة ليست قليلة،  
قرأت خلالها كماً ليس بالقليل من زاد أدب الرحلات، وعايشت كيماً  
من التداعيات والتجليات، أشرقت أضواؤه في النفس حبوراً وسروراً،  
وأعيشت أمطاره هذه الكلمات التي أمام عينيك - أخي القاريء  
ال الكريم، أخي القارئة الكريمة - فإذا لم تجد فيها ما يستحق أن  
تفرد لها الصفحات فذلك أن حبيبي وحبيبك المصطفى الصدوق ﷺ قد  
قال : ( مثل ما يبعثني الله به عزوجل من الهدى والعلم كمثل غيث  
أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ  
والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها  
الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي  
فيungan لاتمسك ماء ولا تبت كلأ )<sup>(١)</sup>

غير أنه مما يفرحي أن هذا البحث برغم ما يعتريه من أوجه  
قصور وضعف وخطأ كان محاولة، سعيت فيها إلى :

١ = إبراز أهمية أدب الرحلات في تشكيل الصورة الثقافية  
لمكة المكرمة في الخوارط الذهنية لكل المسلمين، وتسلیط الضوء

١ - الإمام البخاري، صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب العلم، نشر رئاسة الإفتاء بالرياض ١٣٧٩هـ  
١٧٥/١، ومسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، نشر دار إحياء التراث العربي، ط٢، ٢٠١٣٩٢هـ،  
٤٦/١٥، واللفظ مسلم .

على جزء من ملامح هذه الصورة في كتابات الرحالة العرب، وفي كتابات الرحالة من غيرالعرب .

٢ = إدناه تنويع المعطيات الثقافية إلى ذهن القاريء الكريم، من خلال ماقدمه أدب الرحلات الحجازية في هذا الشأن من جهود وعطاءات مسطورة .

٣ = تأكيد الأثر المتعدى لثقافة مكة المكرمة عبر العصور المختلفة، ليصل إلى كل أصقاع الأرض، وتسلط الضوء على هذا الأثر من خلال المجالات التي تمثل جداول النهر، كالمجاورة، والمؤلفات المكية التي انتشرت في أصقاع الأرض، والحركات الإصلاحية التي شهدتها بعض أقطار العالم الإسلامي .

٤ = تأكيد استمرار وتجدد هذا الأثر المتعدى ؛ لارتباطه باستمرار الحج بمشاعره المادية والمعنوية، بل باستمرار هذا الدين العالمي الخاتم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأجد أنه من الضرورة أن أنبه إلى ظهور الحاجة ماسةً إلى عمل موسوعي ضخم، يجمع بين دفتيه التقسي، والشمول ؛ لإبراز موضوعات ومجالات ثقافة مكة من خلال أدب الرحلات، بحيث يستطيع هذا العمل أن يقدم صورة واضحة للمعطيات الثقافية في مكة المكرمة، في كل سنة هجرية منذ فتحها بيد المصطفى ﷺ، حتى يومنا هذا، تستقي مادته مما كتبه الرحالة عن ثقافة مكة المكرمة، وماتميز به كل عصر عن آخر في عناصر هذه الثقافة .

هذا وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد ،

